أسرار الأمير العاشق

ليالى هارون الرشيد

بين الحقيقة والأسطورة

محمد رضوان

كلمة الناشـــر

هــارون الرشــيـد ....

ذلك الاسم الأسطورى الذى يرتبط عند العامة عند ذكره بالليالى الملاح ، وبهجة الأنس والغناء والجوارى الفاتنات .

ما هى حقيقته ؟

وما هى أسرار حياته ؟

هل كان خليفة ماجنا لاهم له سوى الكأس والطاس والليالى الملاح ؟

هل كان كل همه الترف والتقلب بين ألوان النعيم ، وغشيان مجالس الأنس والطرب والفكاهة ؟

و هل كان خليفة قاسيا يصادق البرامكة ويمنحهم الأمان والوئام ، ثم ينقلب عليهم بين يوم وليلة فيعمل فيهم ذبحا وتقتيلا، ويقضى عليهم كما قضى الوالى محمد على باشا على المماليك فى مذبحة القلعة الشهيرة ؟

إنه كتاب ملىء بالخبايا والأسرار التى ستشدك إلى أسرار هذا الخليفة الأسطورة الذى يجمع بين المتناقضات ، والذى حار فيه المؤرخون ، وجاء هذا الكتاب الجديد من مركز الراية للكاتب الصحفى **محمد رضوان** ليعرض لنا كل آراء المؤرخين فى هذه الشخصية الغامضة، لنتعرف فى النهاية على شخصية «هارون الرشيد» الحقيقية .

أحمد فكرى

مدير مركز الراية

مقدمــة

إذا كانت كتب الأدب والتراث قد حفلت بالعديد من الأسمار والأحاديث عن ليالى الأنس والبهجة فى حياة الخليفة هارون الرشيد، فإن ذلك يحتاج إلى المزيد من البحث والتنقيب وتحليل تلك القصص والأسمار التى جعلت من الرشيد منافسا للملك شهريار فى ألف ليلة وليلة؟

وإذا كان الناس قد اخترعوا على حسابه عشرات الأقاصيص وجعلوه مثالاً لطرب القلوب، وطغيان الأحاسيس، فيجب أن ننقى مثل هذه الحكايات من المبالغات لنفرق بين الحقيقة والأسطورة، وبين الواقع والخيال.

وقد ارتبط هارون الرشيد عند الغربيين بألف ليلة وليلة وحكاياتها الفاتنة الساحرة، وما حفلت به من غرائب الأقاصيص، وبهجة الليالى السعيدة فى ظلال الغوانى والمحظيات والجوارى الفاتنات !

فأين الحقيقة من كل ذلك ؟

هل كان هارون الرشيد مجرد حاكم مفتون بغرائب الحسن وبدائع الجمال، يقضى لياليه بين الكأس والغناء، ويملى عينيه برقص الجوارى الفاتنات، وأهازيجهن الساحرة التى تملأ الليل أنسا وطربا وجمالاً ؟

وإذا كانت هناك شكوك حول هذه الحكايات والأسمار التى دارت حول هارون الرشيد، فإن السؤال الذى يطرح نفسه لماذا هارون الرشيد بالذات وليس غيره الذى دارت حوله تلك الحكايات المثيرة؟

ولماذا أرتبط أسمه بألف ليلة وليلة ؟

وبصرف النظر عن صحة الأخبار والروايات عن لياليه الفاتنات ومجالس أنسه التى لا تنقضى، فماذا عن غزواته وفتوحاته ؟ .

وماذا عن مظاهر الحضارة والرخاء التي تمت في عهده؟

وماذا عن حكمته وعدله وفطنته؟

ألم يكن عهد الرشيد هو العهد الذى انتقل فيه المسلمون من حضارة عربية إلى حضارة عالمية على قدر ما يتصل بالمسلمين من أمم العالم المعمور فى تلك الأيام ؟

ثم هناك تساؤل آخر هام وهو : هل بدأ مع الرشيد انحطاط الدولة العباسية كما ذكر المستشرق سترستين ؟!

وكيف يتفق هذا مع ما ذكره بعض المؤرخين الأجانب من أنه كان بحق هو العصر الذهبى للحضارة الإسلامية ؟

ثم يأتى التساؤل الأهم عن سر انقلاب الرشيد على البرامكة وأسباب نكبتهم الكبرى ؟

ثم ماذا عن سليقته الدينية وإيمانه ، رغم كل الحكايات المثيرة عن لياليه الفاتنات المليئة بالحور العين، وألوان الطرب والشراب والرقص والأسمار التى تصل الليل بالنهار؟

هل كان أميرا ماجناً لا هم له سوى الكأس والموسيقا والغناء ؟

وما هى حكاياته مع الجوارى والمحظيات والقيان المغنيات ؟

إن هناك العديد من الأسئلة الحائرة المثارة حول هذه الشخصية الفذة حاولت في هذا الكتاب الإجابة عنها بقدر الاستطاعة، وإذا كانت القضية كبيرة ومعقدة، فأننى وجدت إنه من الواجب الاستعانة بآراء وتحليلات كبار الآدباء والمؤرخين الذن سبقوا وألقوا الأضواء على مختلف جوانب هذه الشخصية الثرية، حتى نصل جميعاً إلى الحقيقة التى هى ضالة المؤمن، وحتى يتعرف القارئ على الملامح الحقيقية، والجوانب المختلفة لشخصية هارون الرشيد بعيداً عن المبالغة والشطط، وبعيدا عن جو الأسمار والأساطير .

القاهرة سبتمبر ١٩٩٨ **محمد رضوان**

الفصل الأول

هارون الرشيد الأسطورة والحقيقة

نسجت العديد من القصص والحكايات الأسطورية عن الخليفة هارون الرشيد !

ومما زاد انتشار اسطورة الخليفة وحكاياته العديدة، تلك القصص والحكايات التى وردت فى «ألف ليلة وليلة» وما أرتبط به من حكاياته مع القيان والجوارى الحسان .

فأين الحقيقة من ذلك كله ؟

هل شخصية هارون الرشيد شخصية لاهية لا هم لها إلا الطرب والانغماس فى الملذات والترف ؟

أم أن هارون الرشيد يتسم بصفات أخرى بعيدة عن هذه الأجواء والليالى الصاخبة؟

وكيف كان عصر الرشيد ؟

هل كان عصر شك ومجون وترف ؟

أم كان عصر حضارة وتقدم وازدهار علمى وفنى ؟

بقدر القصص والحكايات المثيرة عن هذا الخليفة الشهير المثير للجدل ، بقدر كثرة الاجتهادات وثراء ذلك حول العصر الذى عاش فيه مما يستوجب القاء الضوء على هذه الشخصية الفريدة ، وعلى العصر الذى عاش فيه ، وجلاء الغموض حول هذه الشخصية الحافلة بالأسرار والمعميات التى سنحاول هنا إجلائها وبيان الحقيقة كاملة بحيدة وموضوعية، حتى يضع القارىء يده فى نهاية هذا الكتاب على ملامح شخصية هارون الرشيد وعصره وما حفل به من إيجابيات وسلبيات ، ومن حقائق واساطير !

قبل أن نستطرد فى الحديث عن كل الجوانب المتعلقة بالخليفة العباسى وعصره نقف وقفه سريعة نتأمل نبذة من سيرة حياته وفترة حكمه ...

– ولد هارون الملقب بالرشيد بن محمد المهدى بن عبدالله المنصور ببلدة «الرى» بطبرستان فى آخر ذى الحجة سنة ١٤٥هـ وقيل فى أول محرم سنة ١٤٩هـ وأمه تدعى «الخيزران» وهى أم ولد يمانية ، وقد بويع بالخلافة يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول سنة ١٧٠هـ فى صبيحة الليلة التى مات فيها أخوهم الخليفة الهادى بمدينة السلام ،

واستوزر الرشيد سنة مبايعته بالخلافة يحيى بن خالد البرمكى ودخل اليه بخاتمه قائلا «قد قلدتك أمر الرعية، فاحكم فيها بما ترى،

وأعزل من رأيت، واستعمل من رأيت، وفى سنة ١٧٥ه عقد الرشيد لأبنه محمد ابن زوجته «زبيدة» بولايته العهد من بعده، ولقبه «الأمين» وعمره وقتئذ خمس سنوات.

وفى سنة ١٧٦ه خرج عليه «يحيى بن عبد الله» بالديلم، فأرسل إليه «الفضل بن يحيى» فى خمسين ألفا، فأعاد الأمر إلى نصابه، هذا وقد أخمد الرشيد عدة فتن فى الجزيرة ودمشق فى سنتى ١٧٧ و ١٧٨هـ هذا وقد قام الرشيد بعزل «منصور بن يزيد» عن خراسان سنة ١٧٩ وأقام مقامه «على بن عيسى»، وسار «جعفر بن يحيى البرمكى» فى جيش كبير إلى الشام، فأطفأ الفتن ، وفى سنة ١٨٢ بايع الرشيد لابنه «عبدالله» بولاية العهد بعد محمد الأمين ، وولاه خراسان ، ولقبه «المأمون» ، ثم بايع لابنه «القاسم» بولاية العهد بعد المأمون ولقبه «المؤتمن» وولاه على الجزيرة والثغور، وفى سنة ١٨٧هـ كانت نكبة البرامكة الشهيرة، وفى سنة ١٩٢هـ خرج لمحاربة «رافع بن الليث بخراسان فى جيش كبير من «الرقة» ثم بدأ مرضه ، فوصل إلى طوس» سنة ١٩٣هـ ومات بها يوم السبت لأربع خلون من جمادى الآخره، وبذلك فإن ولايته استمرت ٢٣ سنة وشهرين و ١١يوما، ورحل عن الحياة عن عمر يناهز ٤٧ عاما بعد حياة حافلة بالأحداث الجسام وإذا كانت ولاية الرشيد قد امتدت حوالى ربع قرن ، فإن هذه الفترة كانت ثرية فى مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والفنية ، فإذا أردنا تقييم هذه الشخصية الفذة فإننا يجب استعراض كل هذه الجوانب وتحليلها لنضع أيدينا على الملامح الروحية والنفسية والذوقية والانسانية لشخصية هارون الرشيد، نتعرف على الصحيح والمكذوب مما أثير حول حياته الممتدة الحافلة من قصص وحكايات هى أشبه بالأساطير ، وأحلام اليقظة .

وإذا كانت قصص الجوارى والمحظيات وليالى ألف وليلة التى التصقت بسيرة هارون الرشيد هى الغالبة على أخباره وحكاياته التى تداولها العديد من الأدباء

والمستشرقين والعامة خاصة حكاياته فى «ألف ليلة وليلة» وحكاياته الطريفة مع الشاعر الماجن «أبو نواس». ومع أضرابه من شعراء بغداد الظرفاء ، فإننا سنستعرض أولا بعض هذه الأسمار والحكايات الطريفة التى أمتلأت بها كتب الأدب، والتى تعكس لنا حياة بهيجة مفعمة بالترف وراحة البال، بما فيها من شراب ، وجوار جميلات، وقيان ساحرات الجسم والصوت يملأن الليل رقصا وطربا وأسماراً والخليفة الرشيد بين كل هذا الجمال واللذة والطرب والأنس سعيد منتش ، مستمتع بالطرب والجمال والفكاهة الحلوة ، والسمر اللذيذ ، وسحر القيان وغنائهن الساحر، وشعر أبى نواس بكل مجونه وطرافته ، فأين الحقيقة من كل ذلك ؟!

وقبل كل شىء، ما هى سمات شخصية هذا الخليفة الطروب ؟ .

وما حقيقة «قصر الخلد» موطن تلك الأسمار والليالى الملاح ؟ .

قصـــر الرشـــيد

عندما تولى هارون الرشيد العرش جلس فى «قصر الخلد» وهو قصر منيف بناه جده المنصور، وجعله فى الجانب الغربى من دجلة، ويقع فى منحنى نهر دجلة، وفى ناحية من نواحيه على الشاطىء الآخر قصور البرامكة، مثل قصر يحيى، وقصر جعفر، وقصر الفضل .. الخ ..

وللقصر فناء واسع ملىء بالجوارى والغلمان من كل النوعيات والجنسيات، وكان الرشيد يغالى فى أثمانهن، خاصة إذا كانت الفتاة جميلة أو تجيد الغناء أو الشعر ، ولذلك حوى القصر العديد من القيان والمغنيات اللائى يجدن الغناء والعزف وإلقاء الشعر، واشتهر من جوارى القصر : «ماردة» وهى التى ولدت منه المعتصم ، و «هيلانة» وهى يونانية وغيرهما كثيرات !

وكان هذا القصر المنيف الفسيح الأرجاء الملىء بالتحف والرياش والنافورات والارائك أشبه بمدينة صغيرة يحتوى على العديد من الأجنحة ، فهذا جناح «الخيزران» أم الرشيد بكتبها وغلمانها وجواريها ، وكانت مواكب الأمراء تأتى إلى بابها فنهاها الهادى عن ذلك ، وقال لها : «متى وقف ببابك أمير ضربت عنقه، أمالك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو سبحة» وكان أبنها الهادى يخشى سطوتها وقوة شخصيتها وتدخلها فى شئون الدولة وتسييرها ، فحجز عليها فكرهته .

فاستشاطت الخيزران غضبا من حديث ابنها الهادى ، وقيل أنها كان لها شأن فى المؤامرة التى حيكت وأدت لمقتل الهادى .

فلما تولى الرشيد سدة الحكم أعاد لها سطوتها وسلطانها ، ولكن لم تطل مدتها فى عهده ، فماتت بعد ثلاث سنوات من خلافته ، وهذا جناح «زبيدة» زوجة الرشيد ، بكتبها وغلمانها وجواريها، وكانت شخصية قوية بارة محسنة ولم تكن مثل أم الرشيد

فى دسائسها وتدخلها فى شئون الحكم .

وكانت تنفق الأموال فى أعمال الخير، ومن أعمالها الطيبة «عين الماء المسماة باسم «عين زبيدة» التى أنشأتها بالحجاز ومدت بها الماء إلى مكة .

وهذا جناح «علية» أخت الرشيد ، وكانت شاعرة جميلة لها عشاقها وزوارها ومجالس أنسها وسرورها .

وهذا جناح العباسة «أخت الرشيد» ، وكانت فتاة جميلة شاعرة ، أحبت جعفر البرمكى وكانت تراسله ، وقيل أن ذلك سبب قتل الرشيد له .

وأخيرا جناح الرشيد، وهو أعظم الأجنحة ، فيه جواريه الفاتنات وغلمانه الكثيرون وأطباؤه ، ومضحكوه ، ومغنوه ، وكل ألوان الترف والأبهة والتسلية والسرور !

وكان القصر يموج بالغلمان والجوارى والقيان ، وكانت الجوارى من جنسيات مختلفة : من فارسية إلى يونانية، إلى حبشية إلى هندية إلى تركية إلى عربية تتكلم كل واحدة بلغتها، ولكل سحرها وجمالها ومواطن فتنتها التى تتميز بها عن غيرها، وقد قيل إن عددهن بلغ نحو إلفى جارية مختلفة الأجناس والألوان .

ولكن بماذا كانت تتميز كل جارية حسب موطنها ؟

ذكر خبير بالرقيق وأنواعه: (١)

«إن لكل نوع من أنواع الرقيق ميزات خاصة يعرف بها فالهنديات وديعات لينات الجانب هادئات قادرات على حسن ورعاية الطفل، لكن سرعان ما يتعرضن للذبول، أما السنديات فاشتهرن بالخصر النحيل والشعر الطويل ، واشتهرت مولدات المدينة بالدلال والميل إلى السرور والفكاهة والمجون وبحسن الاستعداد للنبوغ فى الغناء وعرفت مولدات مكة بدقة المعصم والمفصل والعيون فى الغناء وعرفت مولدات مكة بدقة المعصم والمفصل والعيون الناعسة وعرفت الاماء المغربيات البربريات بأنهن لا يبارين فى حسن الانتاج، وهن لدمائة خلقهن، ولين عريكتهن صالحات لأن يتعودن القيام بمختلف الأعمال .

١- « أحمد أمين / هارون الرشيد / دار الهلال / ص ٨٥ » .

أما السودانية فكانت تتسم بقلة الثبات والاهمال، وتتميز بأسنانها البيضاء، ولكن عيبها نتن الأبط وخشونة الملمس، ولكن عرفن بالميل إلى الضرب بالدف والرقص .

أما الحبشيات فعرفن بالضعف والترهل ولكنهن لا يحسن الغناء ولا الرقص .

والمثل الأعلى للجارية كما يقول أبو عثمان الدلال «أمة تكون من أصل بربرى ، فارقت بلادها فى التاسعة من عمرها ، ومكثت عشرة من عمرها لتتثقف بثقافته ، فاذا بيعت فى الخامسة والعشرين، كانت قد جمعت من جودة الأصل ودلال المدنيات ورقة المكيات وثقافة العراقيات .

ولا يخلو قصر الخلد من العلاقات الغرامية ولذة الوصال وحكايات الحب بما فيها من خصام ودلال ولقاء خاصة أنه كان يحوى المئات من الجوارى والغلمان والرجال والنساء على مختلف الاشكال والألوان والأعمار .

وقد روى أن الرشيد أثناء مروره رأى منظرا غراميا مثيرا، فاستدعى «أبو يوسف» لسؤاله «هل على الخليفة إذا رأى هذا المنظر أن يحد الجناة ؟

فأفتاه أبو يوسف بكلمة : لا ، لأن القاضى لا يقضى بعلمه !

فسرى عن الرشيد وأجزل لأبى يوسف الصلات ، وتوثقت صلة الرشيد به من ذلك الحين ، حتى عينه قاضى القضاة .

شبّ هارون الرشيد يتعشق الموسيقى ويجيد الغناء فى صوت حسن، وكان قصره مجمعا للموسيقيين والشعراء والقيان المغنيات ، وقد بلغ من عنايته بالغناء وشغفه بالسماع أن اختيرت فى عصره المائة الصوت المختارة، فقد كلف الرشيد ثلاثة من أعلام الغناء فى عصره هم :

إبراهيم الموصلى ، واسماعيل بن جامع، وفليح بن أبى العوراء أن يختاروا له من ألحان العرب مائة صوت (لحن) .

وكان عصر الرشيد أزهى العصور فى كثرة آلات الموسيقى العربية وتنوعها، فقد

استعمل العرب منها وقتئذ : الدف، والغربال، والبندير، والطبل، والمزهر، والعود، [1] .

وبلغ من معرفة الرشيد بقوة التأليف فى الغناء، وتقدير سمو معاليه، أنه كان يجيز المغنى ببيت واحد إذا نال منه قبولا مالا يجيزه لآخر عن كثير من الغناء غنى ابن جامع الرشيد يوما هذا البيت :

إنـــى إمـــرؤ مالـــى يقـــى عرضـــى
ويبيـــت جـــارى آمنـــا جهلـــى

ولم يزد عليه شيئاً، فأعجب به الرشيد، واستعاده مرارا، وأجازه وغنى اسحاق يوما الرشيد هذه الأبيات :

وآمـــرة بالبخـــل قلـت لها اقصـــرى
فـــذلك شـــىء ما إليـــه ســـبيل
أرى النـــاس خـــلان الكـــرام ولا أرى
بخيـــلا له حتـــى الممـــات خليـــل
وإنـــى رأيـــت البخـــل يـــزرى بأهـــله
فأكـــرمت نفســـى أن يقـــال بخيـــل
فعالـــى فعـــال المكثـــرين تجـــملا
ومالـــى كـــما قد تعلمـــين قليـــل
وكيـــف أخـــاف الفقـــر أو أحـــرم الغنـى
ورأى أميـــر المؤمنـــين جميـــل

فأعجب بها الرشيد ، وأجازه ..

١- الهلال ١٩٤٠ / د. محمود أحمد الحفنى/ الموسيقى والغناء فى عصر الرشيد / ص ١١٢٢ .

الفصل الثانى

هـــارون الرشـــيد
فى ألف ليلة وليلة !

هارون الرشيد فى الأدب الشعبى

وكان لا تساع شهرة هارون الرشيد بين العامة والخاصة، أسباب فنية يفسرها الأديب الشاعر عبد الرحمن صدقى [1]. بأن ذلك يعود للأدب الشعبى ، وعلى الخصوص حكايات ألف ليلة وليلة ، التى ساهمت بقدر كبير فى اشتهار الرشيد دون سائر أمراء المؤمنين عند عامة الناس ، فأغلب ما يحكى عن بغداد فى حكاياتها لا يخلو من ذكر الرشيد والإشادة به والتعظيم له .

وقد يصح فى تعليل ذلك ذهاب بعضهم إلى أن القصص العراقى فى ألف ليلة وليلة قد وضع فى أيامه ، فتحرى واضعوه تملق الخليفة القائم بالأمر للحظوة عنده، ولا عبرة بالنوادر القصار الماجنة، فهى مستحدثة بعد ذلك متأخرة .

ويرى صدقى أننا إذا قلبنا صفحات «الف ليلة وليلة» تكررت على أعيننا صورة لأمير المؤمنين هارون الرشيد وهو يعس بالليل فى عاصمة دولته، كما كان يفعل عمر بن الخطاب أثناء خلافته وإن كان ذلك التوافق لا يخلو من فارق هو الفارق بين الرجلين وبين العهدين : فقد كان الهم الأول والأخير فى عسس الخليفة البدوى عمر هو تفقد الراعى أحوال الرعية، مبالغة فى الحرص على استقصاء الحقائق ورفع المظالم وتوفير العدالة، أما أمير المؤمنين العباسى ، فمن وراء عسس فى حكايات الف ليلة وليلة، باعث شخصى من عقابيل الترف ، هو مدافعة ملل كان يغلب على طبعه، أو أرق شديد كان ينتابه ، فكان فى كل مرة يعاوده الملل او الأرق سرعان ما يرسل فى طلب الوزير جعفر البرمكى، والشاعر أبو نواس وغيره من الندمان ويخرجون ومعهم مسرور السياف، وهم مستخفون فى ثياب التجار تارة وتارة فى ثياب الدراويش ، وعلى هذا النحو يطوفون على هواهم بنواحى بغداد، فى طلب التسلية وتزجية الفراغ بالمشاركة فى الحياة العامة

١- عبد الرحمن صدقى / أبو نواس فى هزله وجده / دار الهلال .

الليلية ، وبالاطلاع على دخائل الأسرار البيتية وطرائف الوقائع الغرامية ، فضلا عن الاستمتاع آخر الأمر بمظاهر المباغتة وما يصحبها من شعائر التعظيم حين يقف القوم على حقيقة المستخفين ، وعلى رأسهم أمير المؤمنين .

وفى جولة بين صفحات كتاب «ألف ليلة وليلة» ذلك الأدب الشعبى العربى الواسع الانتشار داخليا وخارجيا ، وفيه لمحات موجزة عابرة تصور الخليفة هارون الرشيد ومعه رفاق جولاته الخاصة الليلية الوزير والنديم والحارس والسياف ، بصورة ساحرة غنية بالألوان ولذلك علقت فى اذهان العامة قبل الخاصة ، ومثلت فى خيال السواد الأعظم من الغربيين الذين لا يستهويهم من آثارنا الأدبية مثل كتاب «ألف ليلة وليلة » ويكاد يقف علمهم بالشرق العربى عندها .

ويرى عبد الرحمن صدقى[1] أن ألف ليلة وليلة نسيج وحدها فى نوعها، لا يغنى غيرها غناءها فى استحضار صورة حية لذلك الشرق العربى، وكلما يجد الدارس العربى على كثرة المراجع وخزائن المعارف فى لغته - وصف للحياة الاجتماعية فى بغداد وفى غيرها من البلدان العربية وقت ذاك ، يعدل ما يتمثل لنا فى هذه الصفحات وأمثالها فى ألف ليلة وليلة .

ومن حكايات ألف ليلة وليلة الساحرة التى تروى لنا ليالى هارون الرشيد وجولاته وأسماره فى ربوع بغداد هذه الحكايات ...

«أرق الخليفة هارون الرشيد ذات ليلة أرقا شديدا، فاستدعى خادمه «مسرور» وقال له :

«أئتنى بالوزير جعفر سريعا».. فمضى ، وأحضره، فلما وقف بين يديه قال :«يا جعفر، أنه قد اعترانى فى هذه الليلة أرق منع عنى النوم، ولا أعلم ما يزيله عنى قال : يا أمير المؤمنين : هل تفعل ما أشير به عليك»، قال : وما الذى تشير به ؟ » .

قال : «تنزل بنا فى زورق، وننحدر به فى نهر دجلة مع الماء إلى محل يقال له قرن

١- عبد الرحمن صدقى / أبو نواس/ دار الهلال ١٩٥٣/ ص ١٤٦ .

الصراط، لعلنا نسمع ما لم نسمع، أو ننظر ما لم ننظر، فلعل فى ذلك تفريجا للهم وزوال أسباب القلق عنك يا أمير المؤمنين» .

فقام الرشيد عن موضعه ، ودعا لصحبته مع الوزير جعفر أخاه الفضل، وأبا اسحق النديم، وأبا نواس، وأبا دلف، ومسرورا السياف، ودخلوا حجرة الثياب ، فلبسوا زى التجار جميعا، وخرجوا الى دجلة ، ونزلوا فى زورق مزركش بالذهب ، وانحدروا مع الماء حتى وصلوا الى الموضع الذى يريدونه، فسمعوا من بعض الدور الشارعة على النهر صوت جارية تغنى على العود . فقال الخليفة : «ياجعفر، ما أحسن هذا الصوت». فقال الوزير: «يا مولاى! ما طرق سمعى أطيب ولا أحسن منه، ولكن السماع من وراء جدار نصف سماع».

قال : «انهض بنا يا جعفر ! حتى نتطفل على صاحب هذه الدار ، لعلنا نرى هذه المغنية عيانا». فقال الوزير : «سمعا وطاعة» .

وصعدوا من المركب، واستأذنوا فى الدخول. فاذا شاب مليح المنظر، عذب المنطق ، فصيح الكلام قد خرج اليهم وقال : «أهلا وسهلا ، ياسادتى المنعمين على، ادخلوا بالرحب والسعة» . فدخلوا وهو بين أيديهم . فرأوا الدار بأربعة أوجه، وسقفها بالذهب ، وحيطانها منقوشة باللازورد وفى الدار ايوان به سدلة جميلة، عليها مائة جارية كأنهن أقمار. فصاح عليهن ، فنزلن عن أسرتهن .

ثم ألتفت رب الدار الى جعفر ، وقال : يا سيد، أنا ما أعرف منكم الجليل من الأجل. باسم الله، ليتفضل منكم من هو أعلى إلى الصدر ، ويجلس اخوانه كل واحد فى مرتبته». فجلس كل واحد فى منزلته ، وقام مسرور فى الخدمة بين أيديهم . ثم أقبل رب الدار عليهم وقال :

«يا اضيافى ، عن اذنكم ، هل احضر لكم شيئا من المأكول؟».

قالوا : «نعم» فأمر الجوارى باحضار الطعام .

فأقبل اربع جوار مشدودات الاوساط ، بين أيديهن مائدة ، وعليها غرائب الألوان،

مما درج وطار، وسبح فى البحار ، من قطا وسمان، وأفراخ وحمام. وكان مكتوبا على حواشى السفرة من الاشعار ما يناسب المجلس. فأكلوا قدر كفايتهم . ولما غسلوا أيديهم قال الشاب: «يا سادتى، إن كانت لكم حاجة فانبئونى بها، حتى أتشرف بقضائها». قالوا :

«نعم . فانما جئنا منزلك ، من أجل غناء رخيم ترامى الينا من وراء حائط دارك ، فاشتهينا أن نعرف صاحبته ونسمعه . فان رأيت أن تنعم علينا بذلك ، كان من مكارم أخلاقك» . قال : «مرحبا بكم» ثم التفت الى جارية سوداء وقال : «احضرى سيدتك» .

وذهبت السوداء ثم جاءت ومعها كرسى فوضعته . ثم ذهبت ثانيا وجاءت ومعها جارية كأنها البدر فى تمامه . فجلست على الكرسى ، وناولتها السوداء خرقة من أطلس، فأخرجت منها عودا مرصعا بالجواهر واليواقيت ، وملاويه من الذهب، فشدت أوتاره . ثم ضمت العود الى صدرها ، وانحنت عليه انحناء الوالدة على ولدها ، ثم جسته تختبر رنينه، فلما بان حنينه ، ضربت على الاوتار وانشدت على مصاحبته ابدع الاشعار. وما فرغت من شعرها . حتى غلبها البكاء ، فبكت لها سائر الجوارى، ولم يبق سامع لغنائها إلا غاب عن وجوده ، من حسن هذا الغناء وشدة وقعه وعمق تأثيره. وقال الخليفة: «إن غناء الجارية يدل على أنها عاشقة مفارقة». فقال رب الدار : «أنها ثاكلة لأبيها وأمها». فقال الخليفة : «ما هذا بكاء من فقد أباه وأمه، وإنما هو شجو من عرف الحب وكابد الشوق إلى المحبوب». واظهر لمن حوله طربه من غنائها ، فقال أبو اسحق : «يا سيدى، انى لأعجب لها غاية العجب، ولا أملك نفسى من الطرب» . وكان الخليفة – مع ذلك كله – ينظر إلى رب الدار يتأمله ، فلم تشغله محاسنه وظرف شمائله عن رؤية ما يعلو وجهه من الاصفرار .

فالتفت اليه وقال : «يا فتى ، هل تعلم من نحن ؟».

قال : «لا» فقال جعفر : « أوتحب أن أخبرك عن كل واحد باسمه». قال : «نعم». فقال للتعريف: «هذا أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين...» وذكر بقية أسماء الجماعة.

فأخذت رب الدار دهشة لم يلبث أن أفاق منها، حين سمع الخليفة هارون الرشيد يقول: «أشتهي لو أخبرتني عن سر هذا الأصفرار بوجهك؟» فقال: « يا أمير المؤمنين أن حديثي غريب وأمري عجيب». قال الخليفة : « اعلمني به، لعل شفاءك يكون على يدى»، وكلما رأى تردده، أردف : «هات، فحدثني. فقد شوقتني إلى سماعه».

قال: « انى من مدينة عمان، وكان أبى تاجراً كثير المال، وكان له ثلاثون مركبا تعمل فى البحر، أجرتها فى كل عام ثلاثون ألف دينار. فلما حضرته الوفاة دعانى وأوصانى بما جرت به العادة. وكان لأبى شركاء يتجرون في ماله ويسافرون فى البحر. فسمعتهم يصفون ميناء البصرة واتساع تجارتها، ثم عرجوا على وصف بغداد وأجمعوا على أنه ليس أحسن منها فى البلاد وأطنبوا فى عظمتها وجلال عمارتها وحسن شمائل أهلها حتى اشتاقت نفسى إليها، وتعلقت آمالى برؤيتها . فقمت وبعت العقارات والأملاك، وبعت المراكب بمائة ألف دينار غير الجواهر والمعادن.واكتريت مركبا وشحنتها بأموالى وسائر متاعى، وسافرت الأيام والليالى حتى جئت البصرة، فاقمت بها مدة. ثم استأجرت سفينة انحدرت بنا قلائل حتى وصلت إلى بغداد، وأقمت فيها مدة. وفى بعض الايام توجهت إلى الفرجة ومعى شئ من المال وكان اليوم يوم الجمعة. فأتيت إلى جامع يسمى جامع المنصور وبعد أن فرغنا من صلاة الجمعة خرجت مع الناس فى موضع يسمى قرن الصراط، فرأيت فى ذلك المكان موضعا عاليا، وله روشن مطل على الشاطئ، وهناك شباك. فذهبت فى جملة الناس إلى ذلك المكان، فرأيت شيخاً جالسا، وعليه ثياب جميلة، تفوح منه رائحة طيبة، وقد سرح لحيته، فافترقت على صورة فرقتين، كأنها قضيب من لجين، وحوله أربع جوار وخمسة غلمان. فقلت لشخص: « ما اسم هذا الشيخ، وما صنعته؟» . فقال« هذا طاهر بن العلاء وهو صاحب القيان، كل من دخل عنده يأكل ويشرب وينظر إلى الملاح». فقلت: « والله أن لى زمانا، وأنا اشتهى مثل هذا». ثم تقدمت إلى صاحب القيان وسلمت عليه، وقلت له: « يا سيدى أن لى عندك حاجة» . قال : «ما حاجتك». قلت: « أشتهي أن أكون ضيفك فى هذه الليلة» قال : حبا

وكرامة» ثم أستأنف بعد لحظة : « ياولدى ! عندى جوار كثيرة، منهن من ليلتها بعشرة دنانير، ومنهن من ليلتها بأربعين ديناراً، ومنهن من ليلتها بأكثر، فاختر من تريد». ثم وزنت له ثلاثمائة دينار عن شهر فسلمنى لغلام فأخذنى الغلام وذهب بى إلى الحمام فى القصر، وخدمنى خدمة حسنة. فخرجت من الحمام فأتى بى إلى مقصورة، وطرق الباب، فخرجت له جارية، فقال لها : «خذى ضيفك» فتلقتنى بالرحب والسعة، ضاحكة مستبشرة . وأدخلتنى دارا عجيبة مزركشة بالذهب، فتأملت فى تلك الجارية، فرأيتها كالبدر فى ليلة تمامه، وفى خدمتها جاريتان كأنهما كوكبان. ثم أجلستنى وجلست بجانبى، ثم أشارت إلى الجوارى فأتين بمائدة فيها من أنواع اللحوم، من دجاج، وسمان، وقطا وحمام فأكلنا حتى اكتفينا، وما رأيت فى عمرى ألذ من ذلك الطعام.فلما أكلنا رفعت تلك المائدة، وأحضرت مائدة الشراب والمشموم والحلوى والفواكه وأقمت عندها شهرا على هذا الحال.

فلما فرغ الشهر جئت إلى الشيخ وقلت له: « يا سيدى، أريد التى ليلتها بعشرين دينارا». فقال : « زن الذهب». فمضيت، وأحضرت الذهب، فوزنت له ستمائة دينار عن شهر، فنادى غلاما وقال له : « خذ سيدك». فأخذنى وأدخلنى الحمام، فلما خرجت أتى بى إلى باب مقصورة، وطرقه، فخرجت منه جارية، فقال لها :«خذى ضيفك». فتلقتنى بأحسن ملتقى وإذا حولها أربع جوار ثم أمرت باحضار الطعام فحضرت مائدة عليها من سائر الاطعمة، فأكلت ، ولما فرغت من الأكل ورفعت المائدة أخذت العود وغنتنى. فأقمت عندها شهرا، ثم جئت إلى الشيخ وقلت له: « أريد صاحبة الاربعين دينارا». فقال : « زن لى الذهب». فوزنت له عن شهر ألفا ومائتى دينار ومكثت عندها شهرا كأنه يوم واحد لما رأيت من حسن المنظر وحسن العشرة.

ثم جئت إلى الشيخ وكنا قد أمسينا، فسمعت ضجة عظيمة، وأصواتا عالية. فقلت له: « ما الخبر؟». فقال لى الشيخ : « أن هذه الليلة عندنا أشهر الليالى، وجميع الخلائق يتفرجون على بعضهم فيها، فهل لك أن تصعد على السطح، وتتفرج على الناس».

فقلت: « نعم». وطلعت علي السطح فرأيت ستارة حسنة، ووراء الستارة محل عظيم، وفيه سدلة وعليها فرش مليح، وهناك صبية تدهش الناظرين حسنا وجمالا، وقدا واعتدالا، وبجانبها غلام، يده على عنقها، وهو يقبلها وتقبله. فلما رأيتها، لم أملك نفسى ولم أعرف أين أنا لما بهرنى من حسن صورتها فلما نزلت سألت الجارية التى أنا عندها وأخبرتها بصفتها فقالت: « مالك ومالها». فقلت: « والله أنها أخذت عقلى؟». فتبسمت وقالت :« يا أبا الحسن، ألك فيها غرض؟» . فقلت : « أى والله، فانها تملكت قلبى ولبى». فقالت: « هذه ابنة طاهر بن العلاء، وهى سيدتنا، كلنا جواريها. أتعرف يا أبا الحسن بكم ليلتها ويومها؟» قلت : «لا». قالت « بخمسمائة دينار، وهى حسرة فى قلوب الملوك». فقلت : «والله لأذهبن مالى كله على هذه الجارية» وبت أكابد الغرام طول ليلى، فلما أصبحت ، دخلت الحمام، ولبست أفخر ملبوس من ملابس الملوك، وجئت إلى أبيها وقلت: « يا سيدى، أريد التى ليلتها بخمسمائة دينار». فقال « زن الذهب» فوزنت له كل شهر خمسة عشر ألف دينار فأخذها، ثم قال للغلام، « اعمد به إلى سيدتك فلانة» فأخذنى وأتى بى إلى دار لم تر عينى أظرف منها على وجه الأرض، فدخلتها، فرأيت الصبية جالسة، فلما رأيتها أدهشت عقلى بحسنها، وهى كالبدر فى ليلة أربعة عشر، فسلمت عليها، فقالت: « أهلا وسهلا ومرحبا» وأخذت بيدى وأجلستنى إلى جانبها. ثم صارت تؤانسنى بلطف الكلام، وأنا غريق فى بحر الغرام، خائف فى القرب ألم الفراق، من فرط الوجد والاشتياق، ثم أمرت باحضار الأطعمة والفواكه والحلوى والمشموم والمدام ما يصلح للملوك، وجلسنا على المدام وحولنا الرياحين، ثم جاءتها جارية بخريطة من الابريسم فأخذتها وأخرجت منها عودا فوضعته فى حجرها وجست أوتاره وغنتنى أعذب الغناء. فأقمت عندها على هذه الحالة مدة من الزمان، حتى نفد جميع مالى. فتذكرت وأنا جالس معها مفارقتها، فنزلت دموعى على خدى كالانهار، فقالت :« لأى شئ تبكى؟» فقلت لها : « يا سيدتى، من حين جئت إليك وأبوك يأخذ منى فى كل ليلة خمسمائة دينار، وما بقى عندى شئ من المال» . فقالت «أعلم أن أبى عادته

أنه إذا كان عنده تاجر وافتقر، فإنه يضيفه ثلاثة أيام، ثم بعد ذلك يخرجه فلا يعود إلينا. ولكن، أكتم سرك وأخف أمرك وأنا أعمل حيلة فى اجتماعى بك إلى ما شاء الله، فإن لك فى قلبى محبة عظيمة. واعلم أن جميع مال أبى تمت يدى، وهو لا يعرف قدره، فأنا أعطيك كل يوم كيسا فيه خمسمائة دينار، وأنت تعطيه لأبى، وتقول له : « ما بقيت أعطى الدراهم إلا يوما بيوم» وكل ما دفعته إليه، فأنه يدفعه إلى، وأنا أعطيه لك، ونستمر هكذا إلى ما شاء الله». فشكرتها على ذلك وقبلت يدها، ثم أقمت عندها على هذه الحالة مدة سنة كاملة. فاتفق فى بعض الأيام أنها ضربت جاريتها ضربا وجيعا، فقالت الجارية: « والله لأوجعن قلبك كما أوجعتنى». ثم مضت تلك الجارية إلى أبيها وأعلمته بأمرنا من أوله إلى أخره . فلما سمع طاهر بن العلاء كلام الجارية قام من ساعته، ودخل على وأنا جالس مع أبنته، وقال لى: « يافلان» . قلت له: «لبيك». قال « عادتنا أنه إذا كان عندنا تاجر وافتقر ، أننا نضيفه ثلاثة أيام، وأنت لك عندنا سنة تأكل وتشرب وتفعل ما تشاء». ثم ألتفت إلى غلمانه وقال : «اخلعوا ثيابه». ففعلوا، وأعطونى ثيابا رديئة قيمتها خمسة دراهم، ودفعوا إلى عشرة دراهم، ثم قال لى : « أخرج، فأنا لا أضربك ولا أشتمك، واذهب إلى حال سبيلك، وأن أقمت فى هذه البلدة كان دمك هدرا». فخرجت يا أمير المؤمنين، برغم أنفي وأنا لا أعلم أين أذهب. وحل فى قلبى كل هم فى الدنيا، وأشغلنى الوسواس، وقلت فى نفسى : كيف أجئ فى البحر بمائة ألف من جملتها ثمن ثلاثين مركبا ويذهب هذا كله فى دار هذا الشيخ الخليع، وبعد ذلك أخرج من عنده عريانا مكسور القلب، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !!

ثم أقمت فى بغداد ثلاثة أيام لم أذق طعاما ولا شرابا، وفى اليوم الرابع رأيت سفينة متوجهة إلى البصرة، فنزلت فيها واستكريت مع صاحبها إلى أن وصلت إلى البصرة فدخلت السوق وأنا فى شدة الجوع، فرآنى رجل بقال فقام إلى وعانقنى لأنه كان صاحبا لى ولأبى من قبلى، وسألني عن حالى، فأخبرته بجميع ما جرى لى فقال :

« والله ما هذه فعال عاقل، ومع هذا الذى جرى فأى شئ فى ضميرك تريد أن تفعله» فقلت له: « لا أدرى ماذا أفعل» فقال : « أتجلس عندى وتكتب خرجى، ودخلى ولك فى كل يوم درهمان زيادة على أكلك وشربك» فأجبته إلى ذلك، وأقمت عنده سنة كاملة أبيع وأشترى إلى أن صار معى مائة دينار. فاستأجرت غرفة على شاطئ البحر، لعل مركبا تأتى ببضاعة فأشترى بالدنانير بضاعة وأتوجه بها إلى بغداد. فاتفق فى بعض الايام أن المراكب جاءت وتوجه إليها جميع التجار يشترون ورحت معهم، وإذا برجلين قد خرجا من بطن المركب، ونصبا كرسيين، وجلسا عليهما، ثم أقبل التجار لاجل الشراء، فقالا لبعض الغلمان: « احضروا البساط» فأحضروه، وجاء واحد بخرج فأخرج جرابا وفتحه وكبه على البساط، وإذا به يخطف البصر لما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان والياقوت من سائر الألوان. ثم أن واحدا من الرجلين الجالسين على الكراسى التفت إلى التجار وقال لهم : « يا معشر التجار، أنا ما أبيع فى يومى هذا ، لأنى تعبان، فتزايدت التجار فى الثمن حتى بلغ مقداره أربعمائة دينار، فقال لى صاحب الجراب، وكان بينى وبينه معرفة قديمة: « لماذا لم تتكلم وتزايد مثل التجار؟» فقلت له : « والله يا سيدى ما بقى عندى شئ من الدنيا سوى مائة دينار» واستحييت منه ودمعت عينى. فنظر إلى وقد عسر عليه حالى، ثم قال للتجار: « اشهدوا على أنى بعت جميع ما فى الجراب من أنواع الجواهر، والمعادن لهذا الرجل بمائة دينار، وأنا أعرف أنه يساوى كذا وكذا ألف دينار، وهو هدية إليه» فأعطانى الجراب والبساط وجميع ما عليه من الجواهر.

ثم أنى توجهت إلى بغداد ومعى جميع مالى، وسكنت فى الدار التى كنت فيها، فلما أصبح الصباح، لبست ثيابى وجئت إلى بيت طاهر بن العلاء لعلى أرى من أحبها، فإن حبها لم يزل يزيد فى قلبى. فلما وصلت إلى داره رأيت الشباك قد أنهدم. فسألت غلاما: « ما فعل الله بالشيخ؟ » قال: «يا أخى، أنه قدم عليه، فى سنة من السنين رجل تاجر، يقال له أبو الحسن العمانى أقام مع أبنته مدة من الزمان، ثم بعد أن ذهب ماله

أخرجه الشيخ من عنده مكسور الخاطر وكانت الصبية تحبه حبا شديدا، فلما فارقها، مرضت مرضا شديدا حتى بلغت الموت، وعرفت أباها بذلك، فأرسل خلفه فى البلاد وقد ضمن لمن يأتى به مائة ألف دينار، فلم يره أحد، ولم يقع له على أثر، وهى إلى الأن مشرفة على الموت. قلت : « وكيف حال أبيها » قال: « باع الجوارى، من عظم ما أصابه» فقلت له : « هل أدلك على أبى الحسن العمانى » فقال : « بالله عليك يا أخى أن تدلنى عليه» فقلت له: « اذهب إلى أبيها وقل له البشارةعندك، فإن أبا الحسن العمانى واقف على الباب» فذهب الرجل يهرول ثم غاب ساعة وجاء وصحبته الشيخ، فلما رآنى، رجع إلى داره، وأعطى الرجل مائة ألف دينار، فأخذها وأنصرف وهو يدعو لى، ثم أقبل الشيخ وعانقنى، وبكى وقال: « يا سيدى، أين كنت فى هذه الغيبة، قد هلكت ابنتى من أجل فراقك، فادخل معى إلى المنزل». فلما دخلت سجد شكرا لله تعالى وقال: « الحمد لله الذى جمعنا بك» ثم دخل لابنته وقال لها : « شفاك الله من هذا المرض» فقالت : « يا أبت، لا أبرأ من مرضى إلا إذا نظرت وجه أبو الحسن» فقال : «إذا أكلت ودخلت الحمام، جمعت بينكما» فلما سمعت كلامه قالت: « أصحيح ما تقول». قال لها « والله العظيم، أن الذى قلته صحيح» فقالت : « والله أن نظرت وجهه ،ما أحتاج إلى أكل » فقال لغلامه: « احضر سيدك» فدخلت، فلما نظرت إلى وقعت مغشيا عليها، فلما أفاقت، أستوت جالسة وقالت: « والله يا سيدى ما كنت أظن أنى أرى وجهك إلا أن كان مناما» ثم أنها عانقتنى وبكت، وقالت: « يا أبا الحسن، الآن آكل وأشرب» فأحضروا الطعام والشراب، ثم صرت عندهم مدة من الزمان، وعادت لما كانت عليه من الجمال، ثم أن أباها استدعى القاضى والشهود، وكتب كتابها على وعمل وليمة عظيمة، وهى زوجتى التى ترونها الآن، وظل الخليفة وجماعته فى عجب عاجب مما يرون ومما يسمعون، ثم انصرفوا شاكرين للفتى العمانى وضيافته. فلما جلس الرشيد فى دار الخلافة قال: «يا مسرور». قال: « لبيك يا سيدى» قال: « اجمع فى هذا الايوان خراج البصـرة، وخراج بغداد، وخـراج خراسـان» فجمعه فصار مالا عظيـما، لا

يحصى عدده إلا الله. ثم قال الخليفة: « يا جعفر» قال: « لبيك» قال: «أحضر لى أبا الحسن العمانى» قال: « سمعا وطاعة» ثم احضروه. فلما حضر. قبل الأرض بين يدى الخليفة وهو خائف أن يكون طلبه له بسبب خطأ وقع منه وهو عنده بمنزله، فقال له الرشيد: «يا عمانى» فقال: « لبيك يا أمير المؤمنين! خلد الله نعمه عليك» فقال: « اكشف هذه الستارة» وكان الخليفة أمرهم أن يضعوا مال الثلاثة أقاليم، ويسلبوا عليه الستارة. فلما كشف العمانى الستارة عن الأيوان، اندهش عقله من كثرة المال، فقال الخليفة: « يا أبا الحسن أهذا المال أكثر، أم الذى فاتك» فقال: « بل هذا يا أمير المؤمنين أكثر أضعافا كثيرة» قال الرشيد: « اشهدو يا من حضر، أنى وهبت هذا المال، لهذا الشاب» فقبل الأرض، واستحى، وبكى من شدة الفرح بين يدى الرشيد فارتد الدم إلى وجهه، فقال الخليفة: « لا إله إلا الله، سبحان من يغير حالا بعد حـــال» ثم أمر الخليـفة أن يحمل اليه المال وســـأله أن لا ينقطع عنه لاجل المنادمة .

عاشــق الســـمر

بجانب تعدد الجوانب المتعلقة بشخصية هارون الرشيد من النواحى السياسية والثقافية والإجتماعية، فإنه من الضرورى أن نلقى الضوء على معالم شخصية هارون الرشيد الإنسان قبل الحاكم، من خلال القصص والحكايات التى تروى عنه وسنجد ضالتنا فى كثير من المراجع، خاصة ألف ليلة وليلة.. ولكن كيف صوروه ؟ لقد حفلت ليالى «ألف ليلة وليلة» بحكايات الرشيد وأسماره مع الجوارى والقيان والشعراء الظرفاء والصعاليك وأهل الطرب وغيرهم من الشخصيات العديدة التى جرت على ألسنة الرواة على مر الحقب والأجيال، وقد استفاضت «شهر زاد» فى حكاية ليالى الرشيد وأسماره وقصصه التى تجمع بين الطرافة والحكمة والعدل والجور!

ولكن كيف رسمت «شهر زاد» شخصيه الرشيد؟ هل صورته بصورة الماجن اللاهى الذى لا يهمه سوى الكأس والجارية؟ أم صورته بصورة الحاكم العادل الأمين؟ أم صورته بصورة الحاكم الذى يجمع فى حياته بين الدنيا والدين؟ إن شهر زاد[١] رسمته بألوان زاهية، لا شك أن لها جذورا فى التاريخ فهو خليفة عادل ينصف المظلوم ويعين الضعيف، وينقله من حال إلى حال لم يكن يحلم بها ويعمل لخدمة الإسلام والمسلمين، ويجول ليلاً متنكراً فى بغداد كى يتعرف أحوال الناس، ويصحبه فى هذه الجولات وزيره جعفر والسياف مسرور، الأول مسئول عن أمن الناس وراحتهم، ولابد فى نظر الخليفة أن يعرف كل خافية ويطلع الخليفة عليها، يقوم بعمل الشرطى ورجل المخابرت، والثانى «مسرور» يحمى الخليفة ويحرسه مما عسى أن يتعرض له فى جولاته التنكرية، وقد يقتضى الحال أن يأمره بأطاحة رأس يستعصى إصلاح صاحبه ونورد هنا بعض حكايات الرشيد ولياليه فى ألف ليلة وليلة... ويرى عباس خضر[٢] أن الصفة الغالبة

١- مجلة الدوحة / يوليو ١٩٨٥ / عباس خضر / ص ٧٦ .
٢- نفس المرجع السابق / ص ٧٧.

فى هارون الرشيد كانت الميل إلى الترف الشديد، والجوارى الحسان، والعطف على المحبين وصنع المعروف لهم، وإتاحة الفرصة للمحب أن يجتمع بحبيبته، والتنازل للمغرم الولهان عن الجارية الأثيرة لديه: لدى الخليفة كما رسمته شهر زاد !

وتتمثل أكثر سمات هارون الرشيد – كما هو فى خيال شهر زاد – فى حكاية عن حكاياتها نرى فيها ابن الوزير فى البصرة الذى مات أبوه وخلف له ثروة كبيرة بددها فى إسرافه فى «ليالى الحظ» التى كان ينفق فيها بسخاء على أصدقاء النقمة الذين تنكروا له بعد أن عرفوا إفلاسه، وكانت له جارية جميلة يحبها وتحبه، ولم يبق من ماله غيرها فعرضت عليه أن يبيعها وينتفع بثمنها، ولكن الوزير الذى كان ينافس أباه ويعاديه دس له عند سلطان البصرة ونرى بعض الحكايات تقول أن البصرة كان لها سلطان خاضع للخليفة فى بغداد يوليه ويعزله، قال الوزير المعادى للوزير المتوفى وولده إن الجارية الجميلة كان قد اشتراها الوزير المتوفى للسلطان، ولكن ابنه غرر بها واعتدي عليها فاستبقاها له أبوه. أصدر السلطان أمره باهدار دم ابن الوزير، وبحثوا عنه، ولكنه تمكن من الهرب هو وجاريته، وظلا هائمين على وجهيهما حتى بلغا بغداد، وسارا بها حتى وجدا مكانا مكنوسا مرشوشاً أمام بستان مغلق، وفى المكان مصاطب مستطيلة نظيفة، فقال على نور الدين (اسم الشاب) لجاريته :

– إن هذا المكان مليح .

فقالت الجارية :

– ياسيدى لنقعد ساعة على هذه المصاطب كى نستريح.

وكان الشتاء قد ولى عن بغداد ببرده وأقبل عليها الربيع بورده، ونعما بمرور النسيم فناما كان هذا البستان يسمى «بستان النزهة» وفيه قصر يسمى «قصر الفرجة» وهما لهارون الرشيد، كان إذا ضاق صدر الخليفة أتى إلى البستان والقصر لينفرج من ضيقه وينشرح صدره. القصر له ثمانون شباكا وفيه ثمانون قنديلاً، فى وسطه شمعدان كبير من الذهب، إذا دخله الخليفة أمر الجوارى أن يفتحن الشبابيك ويوقدن

القناديل، ويجلس وأمامه اسحاق الموصلي وحوله الجوارى فيسمع الغناء ويشاهد الرقص. وللبستان حارس شيخ كبير اسمه ابراهيم. خرج الشيخ ابراهيم لحاجة عرضت له فوجد الأثنين نائمين. فعاد وقطع جريدة خضراء، وقصد إلى النائمين ليضربهما . ولكنه فكر وقال فى نفسه: - يا ابراهيم، كيف تضربهما ولم تعرف حالهما؟ قد يكونان غريبين رماهما القدر هنا نظر إلى وجهيهما وقال: إنهما جميلان لا ينبغى أن أضربهما.. جلس إلى جانبهما، فاستيقظ الفتى واستوى جالسا قال له ابراهيم: - يا ولدى، من أين أنتما؟

- نحن يا سيدى غريبان .

قال ابراهيم فى نفسه: أن النبى أمر بإكرام الغريب ثم قال، - يا ولدى، أما تقوم وتدخل البستان وتتفرج فيه فينشرح صدرك؟ أراد الشيخ ابراهيم أن يطمئنهما فيدخلا البستان دون أن يشعرا برهبة فقال :

- هذا البستان ورثته عن أهلى

قام الثلاثة ودخلوا البستان ، فوجدوا الثمار على الأشجار - والأطيار تغرد على الأغصان، رأوا البرقوق لونه كلون الحسان، والقراصية تذهل عقل الانسان، والمشمش كمشمش خراسان، والزهر كأنه اللؤلؤ والمرجان ، والورد تحكى حمرته خدود الحسان، وكان الزمان فى اعتدال ، والنسيم فى اعتلال.

دخل بهما الشيخ ابراهيم القاعة المعلقة ، وجلسوا فى طرف من اطرافها، وقدم لهما الشيخ الطعام ، فأكلا ، ثم قام على نور الدين يتمشى فى البستان بصحبة الشيخ ابراهيم ، وقال هذا :

- يا ولدى ، هذه الحجرة فيها كل ما هو معد لأمير المؤمنين ..

- أمير المؤمنين ؟!

- نعم يا ولدى ، كل هذا لأمير المؤمنين هارون الرشيد .

- ألم تقل لنا انك ورثت هذا البستان عن أهلك ؟

– أردت بذلك أن تطمئنا ولا تأخذكما رهبة ونادى على نور الدين جاريته، وجعل يحدثها عما يرى مما يبهر الأنظار ويذهل العقول . وأقبل الليل بظلامه، فقال على نور الدين :

– يا شيخ ابراهيم ، باذنك هل أقوم وأوقد شمعة من هذا الشمع المصفوف ؟

– قم ولا توقد غير شمعة واحدة .

فقام وأوقد شمعة ثم أخرى ، حتى أوقد ثمانين شمعه .

ثم قالت أنيس الجليس :

– وأنا ؟ ألا أوقد قنديلا من هذه القناديل ؟

– أوقدى قنديلا واحدا .

فقامت وابتدأت من أول القناديل إلى أن أوقدت ثمانين قنديلا .

سطعت الأضواء ورقص المكان.. قدر الله السميع العليم أن الخليفة فى ذلك الوقت كان جالساً فى غرفة يطل شباكها على نهر دجلة ، فنظر ناحية البستان والقصر فرأى ضوء القناديل والشموع ساطعا ينعكس على صفحة مياه النهر.. فقال :

– على بجعفر البرمكى ..

فما مرت لحظة إلا وجعفر واقف بين يدى الخليفة :

– ماذا جرى فى قصر الفرجة يا جعفر ؟

– لا شىء يا أمير المؤمنين .

– تقدم عندى وانظر من الشباك .

فنظر جعفر ناحية البستان فوجد القصر كأنه شعلة نار ونور.. فأراد أن يهون الأمر ويلتمس عذرا للشيخ ابراهيم ، وتذكر شيئا فقال :

– يا أمير المؤمنين ، فى الاسبوع الماضى قال لى الشيخ ابراهيم : إنى أريد أن أفرح أولادى فى حياتك وحياة أمير المؤمنين ، أريد أن تأخذ لى اذناً من الخليفة بأن أقيم فى البستان حفلاً لختان أولادى ، فقلت له : افعل ما شئت وإن شاء الله أعلم

الخليفة بذلك .

- يا جعفر ، كان لك عندى ذنب واحد فصار الآن ذنبين ، لأنك أولا ما أعلمتنى ، وثانيا ما بلغت ابراهيم مقصود ، لأنه ما قال لك ذلك إلا تعويضاً بطلب شىء من المال يستعين به، فلم تعطه ولم تعلمنى حتى أعطيه .

- نسيت يا أمير المؤمنين .

- هيا بنا نذهب اليه، فانه رجل صالح يعطف على الفقراء ويواسى المساكين .

- يا أمير المؤمنين أن معظم الليل قد مضى ، ولا بد أنهم فى هذه الساعة على وشك الانفضاض.

- لا بد من الذهاب اليهم .

خرج الخليفة وبصحبته جعفر ومسرور متنكرين فى زى تجار، وساروا إلى أن وصلوا إلى باب البستان ، ووجدوا الباب مفتوحاً ، فدخلوا ومشوا إلى آخر البستان . وقال الخليفة :

- لابد أن أتسلل اليهم لأنظر ماذا يفعلون قبل أن يرونا .

وصعد الخليفة على شجرة جوز عالية فروعها قريبة من الشبابيك ، وقعد على الفرع الذى يقابل شباكا تأتى منه أصوات غناء . ونظر فرأى جاريه تغنى وأمامها شاب، والاثنان فى منتهى الحسن والجمال . كانت أنيس الجليس تغنى والشيخ ابراهيم يدق على طبلة وهو فى غاية الطرب. عجب الخليفة من هذا المنظر ، ثم نزل وقال :

يا جعفر ، اصعد وانظر الرجل الصالح وماذا يفعل .

صعد جعفر ورأى ما رأى الخليفة ، ثم نزل ووقف صامتا من شدة الخجل .

انصت الخليفة إلى غناء الجارية ، فأطربه صوتها ، فلان صوته وهو يخاطب جعفر:

- والله يا جعفر ما سمعت صوتا مطربا مثل هذا.. أريد أن أدخل اليهم وأجلس معهم واسمع الصبية تغنى أمامى .

- يا أمير المؤمنين إذا دخلت عليهم تغير حالهم وصاروا فى خوف وهيبة منك .

– قدر لى ياجعفر فى حيلة احتال بها على معرفة الحقيقة من غير أن يشعروا باطلاعنا عليهم.

قال الخليفة ذلك ثم قصد إلى ناحية دجلة وجعفر يتبعه ، وإذا صياد واقف يصطاد وقد رمى شبكته فى الماء وهو ينشد :

يا راكــب البحــر فى الأهــوال والهلكـــة
أقصـــر عنـــاك فليـــس الــرزق بالحــركة
أمـــا تـــرى البحــر والصيـــاد منتصـــب
فى ليلـــــة ونجـــوم الليـــل محتبكـــة

ولما فرغ من انشاد التفت فرأى الخليفة أمامه فارتعدت فرائصه ، ولكن الخليفة هون عليه إذ ناداه باسمه وكان يعرفه :

– يا كريم ، اصطد على بختى .

اطمأن الصياد ولم شبكته ثم طرحها فى الماء، ثم جذبها ، فاذا فيها سمك كثير ، فرح الصياد ولكن الخليفة كان مشغولا عنه يفكر فى حيلة يدخل بها على الشاب والجارية والشيخ ابراهيم ، ثم فاجأ الصياد بقوله :

– ياكريم اخلع ثيابك ..

فلم يسع الصياد إلا أن ينفذ أمر الخليفة وخلع جلبابه الخشن المملوء بالقمل والبراغيث.. وخلع عمامته التى مكثت فوق رأسه ثلاث سنين بدون حل ولا ربط .. وخلع الخليفة جبته وثوبين من الحرير، ثم قال للصياد : خذ هذه والبسها . ولبس جبة الصياد وعمامته ووضع على وجهه لثاما : وقال للصياد: اذهب أنت إلى حالك ودعنى ولا تسألنى عن شىء .

شعر الخليفة بالقمل يجول على جسمه ، فأخذ يتحسس بعض جسمه ويقبض بيده ويرمى .. ثم قال للصياد .

– ويلك .. ماهذا القمل الكثير ؟

- يا سيدى ، إنه فى هذه الساعة يؤلمك ، فإذا مضى أسبوع فأنك تتعود عليه ولا تحس به .

فضحك الخليفة وقال له :

ويلك كيف أبقى هذا الجلباب على جسدى أسبوعا ؟

- أتأذن لى يا أمير المؤمنين أن أقول كلاماً أشتهى أن أقوله ...

- قل ما عندك .

- خطر ببالى يا أمير المؤمنين أنك أردت أن تتعلم الصيد حتى تكون فى يدك صنعة تنفعك وما دام الأمر كذلك فهذا الجلباب يناسبك .

قال الصياد ذلك وولى فى سبيله . أخذ الخليفة سلة السمك ووضع فوقه قليلا من الحشائش.

وقصد إلى جعفر ووقف بين يديه، فقال له جعفر :

- يا كريم - ما جاء بك إلى هنا ؟ انج بنفسك قبل أن يراك الخليفة ..!

ضحك الخليفة وأزاح الكثام عن وجهه وهو يقول :

- هذه نتيجة طيبة، إذا كنت لم تعرفنى فلن يعرفنى الشيخ ابراهيم . كن مكانك حتى أرجع اليك .

تقدم الخليفة الى باب القصر ودقه ، فقال ابراهيم من الداخل :

- من بالباب ؟

- أنا كريم الصياد . سمعت أن عندك ضيوفا فجئت اليك بشىء من السمك .

- دخل الخليفة وابتدأ بالسلام . فقال له ابراهيم :

- أهلا باللص المغامر ، تعال أرنا السمك الذى معك .

وأقبل على نور الدين والجارية لما سمعا ذكر السمك، وكانا يحبانه . قالت الجارية :

- هذا السمك مليح ، ليته كان مقليا .

- قال ابراهيم للخليفة :

- اذهب الى المطبخ وأقل السمك وهاته بسرعة .

- سمعاً وطاعة .

قال الخليفة ذلك وجرى الى جعفر وقال :

- يا جعفر انهم طلبوا السمك مقليا .

- يا أمير المؤمنين هاته وأنا أقليه .

- لا والله لا يقليه إلا أنا بيدى ..

ذهب الى المطبخ فوجد فيه كل ما يحتاجه قلى السمك . فلما تم قليه اخذه اليهم ووضعه بين أيديهم.فلما أكلوا وغسلوا ايديهم قال الخليفة لعلى نور الدين :

- ليتك تعطف على يا سيدى وتأمر الجارية أن تغنى .

قال ابراهيم كما اعتاد أن يخاطب الصياد :

- يا أحقر الصيادين .. مالك والغناء ؟ ومن أنت حتى تطلب الغناء ؟ أنت طفيلى والمثل يقول «طفيلى ويقترح!» .

قالت الجارية لإبراهيم .

- لا يا سيدى انه يستحق كل خير ، لقد أطعمنا السمك اللذيذ .

وقال الشاب :

- غنى يا أنيس الجليس من أجل هذا الصياد .

تناولت العود وغمرته بعد أن عركت اذنه وغنت فأطربت ، وجعل الخليفة يهتز طربا وهو واقف ويقول : طيبك الله .. طيبك الله ..

وقال له على نور الدين :

- اجلس ، خذ راحتك ..

بعد الفراغ من الغناء التفت الخليفة الى الشاب وقال له :

- يا سيدى هل أنت هارب من جناية ؟

أو لأحد عليك دين ؟

– يا صياد ، أنه جرى لى ولهذه الجارية أمر عجيب .

– أما تحدثنى بحديثك عسى أن يكون لك فيه فرج .

فأخبره على نور الدين بما جرى له من الأول إلى الآخر .

قال الخليفة :

– أنا أكتب لك ورقة توصلها الى محمد بن سليمان الزينى (سلطان البصرة)

– وهل فى الدنيا صياد يكاتب الملوك .. ؟

– صدقت ، ولكنى أخبرك بالسبب ، لقد قرأت أنا وهو فى مكتب واحد عند فقيه، وكنت أنا العريف، ثم ادركته السعادة وصار سلطانا.

– أكتب حتى أنظر .

كتب الخليفة بعد البسملة :

«من هارون الرشيد الى محمد بن سليمان الزينى . الواصل اليك بكتابى هذا على نور الدين بن خاقان الوزير قد وليته على ما كنت وليتك عليه سابقا ، فانزع نفسك وأجلسه مكانك . » .

ما قرأ الشاب هذه الرسالة حتى هب واقفا بين يدى الخليفة :

– معذرة يا أمير المؤمنين ..

وما رأى ذلك الشيخ ابراهيم حتى وقع مغشيا عليه .. ولما أفاق جعل يتضرع الى الخليفة حتى عفا عنه .

وتحفل الليالى بمجالس الشعر التى كان يحضرها هارون الرشيد، مثل ذلك المجلس الذى تبارى فيه بعض الشعراء، حيث ذكر البعض أن الشعر الحضرى الذى كان يحبه الرشيد أرق من الشعر الجاهلى، كالفرق بين قول امرىء القيس :

تقـــول وقـــد مـــال الغبيـــط بنـــا معـا
عقـــرت بعيـــرى يا أمـــرىء القيـس فـــانزل

وقول على بن الجهم :

فبتـــنا جميعـا لو تـــراق زجـاجـــــــــة

من الخمـــــر فيما بيـــننا لم تســــــرب

كما تبارى الشعراء فى مجلس الرشيد حول وصف الشعراء للخمر مثل قول أبو نواس :

رق الزجــــــاج وراقـــت الخـــــــمر

وتشـــــابها فتشــــاكل الأمــــــــر

فكــــــأنما خـــــمر ولا قـــــــدح

وكــــــأنما قـــــــدح ولا خـــــــمر

إلى غير ذلك كثير من مثل هذه المجالس الشعرية العامرة .

الفصل الثالث

بين « أبى نواس » وهارون الرشيد

إن القارىء المتابع سياق هذه الجولة الليلية وأمثالها من ألف ليلة وليلة ، يلحظ لا محالة أن حظ منادمة الخليفة فيها أكثر للوزير جعفر، وأن أبا نواس يشارك فيها بوجوده أكثر مما يشارك بحديثه أو مجونه. ولعل هذا الموقف السلبي قد عز على الاستاذ المستشرق «مردريس» Mardrus في ترجمته الفرنسية النفيسة ، فكان من ذلك أن أجرى – في قصة علاء الدين أبي الشامات – بعض كلام الوزير جعفر على لسان أبي نواس (١) .

بيد أن الحال لا تظل على هذا المنوال من ألف ليلة وليلة، بل تتخللها هنا وهناك نوادر تزول فيها الوحشة وترتفع الكلفة إلى حد يوجب الدهشة، بين الخليفة أمير المؤمنين هارون الرشيد والشاعر الماجن أبي نواس . ونحن لا نتردد في الجزم بأنها من الاضافات المتأخرة مجاراة لا ذواق العوام .

ومن ذلك ما يحكى في ألف ليلة وليلة من أن الخليفة أمير المؤمنين هارون الرشيد أرق ذات ليلة – كعادته – أرقا شديدا. فقام يتمشى في جوانب قصره حتى أتى مقصورة عليها ستر ، فرفع ذلك الستر فرأى في صدرها تختا ، وعلى ذلك التخت شيء أسود كأنه انسان نائم، وعلى يمينه شمعة وعلى يساره شمعة، فبينما هو ينظر إلى ذلك ويتعجب منه، وإذا بباطية مملوءة خمرا عتيقا والكاس عليها، فلما رأى ذلك أمير المؤمنين في نفسه ، وقال : «أتكون هذه الصحبة لمثل هذا الاسود». ثم دنا من التخت فرأى الذي فوقه صبية نائمة، قد تجللت بشعرها ، فكشف عن وجهها ، فرآها كأنها البدر ليلة تمامه، فملأ الخليفة الكأس من الخمر وشربه على ورد خدها ، ومالت نفسه اليها فقبل أثرا كان بوجهها، فانتبهت من منامها قائلة :

«يا أمين الله ما هذا الخبر» . فقال :

---

١ – عبد الرحمن صدقي / أبو نواس .

هو ضيــف طـــارق في حيكـــم
هل تضيــفوه إلى وقـت الســحر؟

فأجابته :

بســـرور وهنـــاء ســـيدى
أخدم الضيـف بسـمعي والبـصر

ثم قدمت الشراب فشربا معا ، ثم أخذت العود وأصلحت أوتاره ، وضربت عليه إحدى وعشرين طريقة، ثم عادت إلى الطريقة الأولى ، وبعد أن أطربت بالنغمات وأنشدت أعذب الأبيات ، قالت : «أنا مظلومة يا أمير المؤمنين». قال :

«ولم ذلك ؟ ومن ظلمك؟» قالت: « أن ولدك اشتراني من مدة بعشرة آلاف درهم، وأراد أن يهبني لك، فأرسلت إليه ابنة عمك الثمن المذكور، وأمرته أن يحجبني عنك فى هذه المقصورة». فقال لها: «تمنى على» قالت: « تمنيت عليك أن تكون ليلة غد عندى» ثم تركها ومضى. فلما أصبح الصباح، توجه إلى مجلسه، وأرسل إلى أبى نواس فلم يجده، فأرسل الحاجب يسأل عنه فرآه مرتهنا في بعض الخمارات على ألف درهم أنفقها على بعض المرد، فسأله الحاجب عن حاله، فقص عليه قصته، وما وقع له مع أمرد مليح أنفق عليه الألف درهم. فلما رأى ذلك الحاجب، علم بحال أبى نواس وغرامه فرجع إلى الخليفة وأخبره بحاله فأحضر الخليفة ألف درهم وأمر الحاجب أن يأخذها ويرجع بها إلى أبى نواس فدفعها عنه وتوجه به إلى الخليفة، فلما وقف بين يديه، قال له الخليفة: «أنشدنى شعراً يكون فيه « يا أمين الله ما هذا الخبر» فقال : «سمعا وطاعة يا أمير المؤمنين» وأنشده أبياتا تطابق واقعة الحال، فقال له الخليفة على أثرها: «قاتلك الله كأنك كنت حاضراً معنا» ثم أخذه الخليفة من يده وتوجه به إلي الجارية. فلما رآها أبو نواس، وكان عليها بدلة زرقاء وقناع أزرق أكثر التعجبات. وقدمت الجارية الشراب للخليفة ثم أخذت العود بيدها، وأربت بالنغمات، فأمر أمير المؤمنين باكثار الشراب على أبى نواس حتى غلبه السكر، ثم ناوله قدحا، فشرب منه جرعة واستدامه فى يده وقد

غاب عن رشده، فأمرها الخليفة أن تأخذ القدح من يده وتخفيه، فأخذت القدح من يده، وأخفته بين فخذيها، ثم أن الخليفة سحب سيفه في يده ووقف على رأس أبو نواس، ووكزه بالسيف فاستفاق، فوجد السيف مسلولا في يد الخليفة فطار السكر من رأسه، فقال له الخليفة: «أنشدني شعرا، وأخبرني فيه عن قدحك، وإلا ضربت عنقك» فأنشد:

قصتي أعظم قصة صارت الظبية لصـــه

سرقت كأس مدامي بعد مصي منه مصه

ســـترته في مكان بفؤادي منه غصـــه

لا أســـميه وقـــارا للأمـــير فيه حصـــه

فقال له الرشيد: «قاتلك الله! من أين علمت ذلك؟».

وأمر له بخلعة وألف دينار .

وندع قصص «ألف ليلة وليلة» إلى كتاب « اعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بني العباس» وغيره من التصانيف الأدبية التاريخية، فإذا هي كذلك في جملتها تروى لأبي نواس مع الرشيد نوادر لا حصر لها، وكلاما كثيرافي المجون والخلاعة، وما جريات تدل على حضور بديهته وسرعة خاطره وظرفه وخفه روحه

والذي يتقرر في الأذهان من مطالعة هذا المحصول الوافر من النوادر هو أن الشاعر كان أشبه بمضحاك للخليفة، يتفكه بأحاديثه ونوادر أفاعيله والمقرر في أسفار التواريخ المعول عليها أن الذي كان مضحكا للخليفة ومحدثا فكها هو أبن أبي مريم المدني، فكان الرشيد لا يصبر عنه. وقد بلغ من خاصته بالرشيد أن بوأه منزلا في قصره وخلطه بحرمه وبطانته ومواليه وغلمانه. وكانت له نوادر وأفاعيل غاية في الجرأة يضحك لها الرشيد ويذهب به الضحك حتى يكاد ينقطع نفسه. وهذا بعينه ما يحكى عن نوادر أبي نواس مع الخليفة هارون. فهي حكايات موضوعة أو على الأقل منسوبة إلى غير صاحبها. وقد قيل في أول اتصال لأبي نواس بالخلفاء أن الرشيد قال ذات ليلة لهرثمة بن أعين: «أطلب لي رجلا للحديث والسمر» . فخرج هرثمة فسأل فدل عليه،

فنادم الرشيد تلك الليلة وأجاز ما أقترحه من الشعر بديها ، فحسن موقعه عند الرشيد، وأمر له بمال، وكان ذلك سبب اتصاله به. وكان أبو نواس يحدثه من قبل بنوادر الناس، ولكن من غير أن يفكه بأعراضهم، ثم أعرض عن ذلك. فقال له الرشيد ذات يوم: «حدثنا يا أبا نواس». فقال: «لا يحضرنى شئ» فقال الخليفة : «بحياتى الا ما قلت شيئا» قال: «كان الكذب عملى، واليوم هجرته يا أمير المؤمنين» فضحك الرشيد وقال : « هذا أحب إلى من الحديث»وقيل أنه انما حصل على هذه المكانة عند الرشيد بأنه كان إذا بكر سأل خواص أهل بيته عما يكون فى نفسه أو يكون جرى له فى ذلك الوقت، ثم ينشده أشعارا لطيفة فى مطابقة ذلك فيطيب بها نفسا. فمن ذلك أنه كان يوما مع الرشيد فى قصره، فعلم من بعض خدمه أنه دخل مقصورة جارية من جواريه على غفلة منها فوجدها تغتسل وقت الظهر، فلما رأته تجللت بشعرها فأعجبه ذلك منها. فلما أن دخل أبو نواس تلك الليلة إلى مجلس سمر الخليفة أنشده:

نضت عنها القميص لصب ماء
فـورد وجـهها فرط الحـياء
وقـابلت الهـواء وقـد تعـرت
بمعـتدل أرق مـن الهـواء
ومـدت راحـة كالماء منهـا
إلى مـاء معـد فى إنـاء
فلمـا أن قضت وطـراً وهـمت
علـى عجل إلى أخـذ الـرداء
رأت شخص الرقيب على التدانـى
فأسبلت الظـلام عـلى الضـياء
وغـاب الصبح منهـا تحت ليـل
وظـل المـاء يقطـر فـوق مـاء

فسبحـــان الالـــه وقـــد براهـــا

كأحســن ما يكــون مــن النســاء

فنادى الرشيد على سبيل الأستغراب :«سيفا ونطعا ياغلام !» فقال الشاعر: «ولم يا أمير المؤمنين؟» . فقال : «أمعنا كنت؟» قال : «لا، وإنما شئ خطر لى بالبال فقلته». فضحك الخليفة ثم أمر له بجائزة.

وأذا صحــت هذه النوادر المتكــررة، فلا مندوحـــة من القول مع الأقدمين بأن أبا نواس كان له بين خدم القصر ووصيفاته من كان يوافيه على الفور بما يجرى فى المقاصير، وما يقع بين الخليفة وجواريه خاصة من وقائع الصبوة ومواقف الغزل ليكون له من ذلك مدخل إلى قلب الخليفة؟ولكن أتراها صحيحة هذه النوادر وأمثالها مما رواه بعض المتقدمين وجعل يردده غيرهم من بعدهم ويضيفون إليه؟ أن القول بصحتها له مؤيدون، وهم يجعلون لأبى نواس عند الخليفة هارون منزلة النديم الذى داخله وخالطه وانبسط إليه وتكشف معه، حتى أنه أخذ المقام الأول بين الندمان وبنى لنفسه فى نهر طابق الدور التى لم تبن مثلها عظماء الناس. وعلى الضد من ذلك المترجمون الذين قيل أنهم المحيطون علما بأحوال أبى نواس. فهم يجزمون بأن هذه الحكايات عن أبى نواس والرشيد موضوعة، وأن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه، وإنما دخل على محمد الأمين، وأنه ما ملك عشرين ألف نواة، فكيف بعشرين ألف درهم!

وأغلب الظن أن الفريقين ذهبا مذهب الغلو فى الوهم، وأن القولين لا يسلمان من المبالغة والسرف فى الجزم. ولكى نتبين وجه الرأى، يحسن أن نتمثل حياة البلاط فى ذلك العهد .

كان هارون فى تفويضه أمور الدولة وتدبيرها إلى البرامكة يجد من وقته الفراغ للتملى بنعيم الأسرة، بين زوجاته وأخصهن بالمكانة عنده زبيدة، وأمهات أولاده اللاتى يزدن على العشرين، وجواريه وهن زهاء الألفين نذكر منهن ضياء وهيلانة الرومية، وأولاده وأنبههم ذكرا الأمين والمأمون وسائر أفراد بيته. وكذلك وجد الخليفة الفراغ

للجلوس إلى أهل الفقه والأدب، وللخلوة بعد ذلك لمجلس المنادمة والشراب، وكان هارون تام الخلقة جميلا، طويلا، أبيض مُسمتا، له وفرة وقد وخطه الشيب. وقد اشتهر بشرب النبيذ الذى كان يرخص أهل العراق فى شربه. وكان يحتفل باحياء أبهى ما عرف فى بلاط الملوك من حفلات السماع يشترك فيها أعلام المغنين والمغنيات على أنواع المعازف والملاهى ولا عجب فأولاد المهدى كلهم من محبى الموسيقى لما كان يجتمع فى قصر أبيهم من القيان، ولطول ما تردد فى مجلسه من الغناء والألحان. وكان هارون يقرب الشعراء ويحب المديح من شاعر فصيح ويجزل العطاء له. وكان مما يزيد فى سروره بالشعر وطربه عليه أن يعمل فيه ما يوافقه من اللحن ويغنى له. ولكنه على كل حال كان من أحكم الناس بصرا بالشعر وأصحهم تنوقا لجيده وأشدهم تأثرا به. فلا يمكن وهارون الرشيد بهذا الموضع أن يخفى عليه شأن شاعر كأبى نواس وألا يلتفت إلى براعة معانيه وحلاوة لفظه وإذا كان المعقول لا يكفى ولا بد من منقول، فالدلالة حاضرة فيما رواه اسحق الموصلى من تقديم الرشيد لشاعرنا مع ما كان من مماراة جعفر البرمكى فى أمرهم وتعصب اسحق نفسه عليه وقتئذ لشئ جرى بينهما حتى صار لا يعد أبا نواس ألبتة ولا يرى فيه خيرا .

ولقد كان شعر أبى نواس مما يتغنى به بين يدى الرشيد فى مجالس الغناء العامرة الزاهرة، ومن ذلك هذه المقطوعة التى غناها سليم بن سلام فيما كان مولعا به من الاهزاج :

أصبـــح قلبـــــى به نــــدوب
أندبـــه الشـــــادن الربيـــب
تمـــــاديا منه فـــى التصـــابى
وقـد عـــلا رأســـى المشـــيب
أظننـــى ذائقـــا حمامــــــى
وأن إلمامـــــه قـــــــريب

إذا فــــؤاد شـــجـــاه حــب

فقلمـــــا ينفـــع الطبيـــب

ونزيد عليه هنا ما رواه كاتب الرشيد اسماعيل بن صبيح. قال: قال لى الرشيد : «يا اسماعيل! أبغنى وصيفة مليحة مقدودة شكلة، حلوة متكلمة، ظريفة عالمة، تسقينى، فإن الشرب يطيب من يد مثلها». فقلت: «يا سيدى! على الجهد». فقال «اجعل أمامك قول هذا العيار – يريد أبا نواس – وامتثل فيها ما حد فى مثلها لك». قلت: «يا سيدى ! فما قوله؟» فقال الرشيد :

«من كف ساقية ناهيك ســـــــاقية

فى حســـن قد وفى ظــرف وفى أدب

كـــانت لرب قيـان ذى مغالبـــــة

بالكشخ محترف، بالكشخ مكتسب (١)

فقـد روت ووعت عنهن، واختلفـــت

مـل بينهـن ومن يهـوين بالكــــتب

حق إذا ما غلا ماء الشـــــباب بها

وأفعمـــت فى تمام الجســم والقصب

وجمشت(٢) بخفى اللحظ فانجمشــت

وجرت الوعـــد بين الصدق والكـــذب

تمـت فلم ير إنســان لها شـــــبها

فيمـــن برا الله من عجــم ومن عـرب

تلك التـــى لو خـلت من عين قيمـــها

لم أقـض منها ولا مـن حبهـــا أربى

«وأقطع مما تقدم فى تقدير الرشيد لشاعرنا ومعرفته لفضله ومغالاته بقدر ما رواه

١- جمشها : لاعبها . ٢- الكشخ : الجمع بين النساء والرجال .

يوسف بن الداية، قال : غاب أبو نواس عنا وعن أخوته غيبة طويلة متصلة فلم نعرف له خبرا . وجعلنا نسأل عن أمره فلم نعلم له أثرا ، حتي مضى نحو من سنة، فظن أنه قتل. وبلغ ذلك الرشيد فقال: «والله أن صح أنه قتل لأقتلن قاتله ولو كان محمدا ولدى. انظروا كل من كان هجاه من الناس فاكتبوا اسمه وأرفعوه إلى» فارتجت لذلك بغداد. فلما كان على رأس الحول، إذا نحن به قد وافى. فقلنا له: «يا أبا على! قد غبت عنا هذه الغيبة فغممتنا وظننا بك الظنون». قال: «كنت بافتقادنا لك، وقول الرشيد فيك؟» ولم يبق أحد من أخوانه إلا عذله، وقالوا: «إن فى هذا تعريضا لنفسك للآفات» فأنشأ يقول :

إني لفـي شـغل عن العالمـين
بالـراح والريحان والياسـمين
عنـد غـزال حسـن وجهـه
قلبـي حبيـس بهـواه رهـين

ونذكر إلى جانب ذلك حديث الحسين بن الضحاك الشاعر - وقد كان وأبو نواس تربين نشأ فى مكان واحد وتأدبا بالبصرة وكانا يحضران فيها مجالس الأدباء متصاحبين - قال : «خرج أبو نواس عن البصرة قبلي وأقام مدة ، واتصل بي ما آل اليه أمره ، وبلغني ايثار السلطان وخاصته له، فخرجت عن البصرة إلى بغداد ، ولقيت الناس ومدحتهم وأخذت جوائزهم وعددت فى الشعراء، وهذا كله فى أيام الرشيد إلا أني لم أصل اليه » .

وأخيرا ما نقله بعض الرواة عن مطيع - وكان خادما للبرامكة ثم دخل بعدهم فى خدمة الرشيد - قال «كنت واقفا على رأس الرشيد إذ دخل أبو نواس (وذلك بعد قفوله من رحلته إلى مصر فقال له الرشيد : أنشدني قولك فى الخصيب «محضتكم يا أهل مصر نصيحتي» فانشده أياها ، فلما بلغ قوله:

فإن يكُ باق افك فرعون فيـكم

فان عصـــا موســـى بكـــف خصيب

فقال له الرشيد : ألا قلت : «فباقى عصا موسى بكف خصيب» ؟ فقال الشاعر :«هذا احسن، ولم يقع لى» وأحسبنا بعد هذا الذى سمعناه من الخبر المتواتر من مختلف المصادر لا نكون متعسفين إذا لم نستبعد دخوله على الرشيد، ونحن نرجح ذلك بعد زوال دولة البرامكة .

ولكن الذى لا نرجحه ونستبعده كل الاستبعاد هو ملازمته الرشيد ومنادمته له على الوجه الذى يقولون. فقد كان خلفاء بنى العباس حتى ذلك الحين – مع تفرج من تفرج منهم ببعض اللعب واللهو – محافظين على وقار الملك. كما أن لهوهم لم يكن كله لهو ترف. فقد كان المهدى مولعا بالصيد واللعب بالدبوق والصوالجة . وكذلك كان الرشيد يتصيد ويلعب بالصولجان فى الميدان الى جانب لعبه بالكرة والطبطاب ورميه فى البرجاس بالنشاب، ومع احتفاله بشهود السباق وكلفه بالشطرنج . ثم انهم حتى فى خلواتهم للشرب واللهو كانوا كارهين للتبذل وطرح الاحتشام. فالمهدى كان شديد الحب للنساء، ومع هذا كان ينهى بشارا عن الفحش فى الغزل، وإذا حن الى سماع شىء منه قال لبشار : «قل فى الحب شعرا ولا تطل ولا تسم أحدا». وكذلك لما اتصل بالرشيد قول أبى العتاهية فى عتبة متغزلا :

ألا أن ظبيـــــا للخليفـــة صـادنــى

ومالى على ظبـــى الخليفــة من عـدوى

غضب الرشيد وقال : «أسخر منا، فعبا» . وأمر بحبسه وطال فى الحبس مكثه، وكان المهدى يسمح لمناديمه فى مجلس السماع أن يشربوا وأن كان لا يشرب ، ولكنه حين رأى ابراهيم الموصلى فى منازل الناس، يتبذل معهم ويجيئه منتشيا، أمر به فضرب وحبس. والرشيد على حبه للتنعم واستمتاعه بألوان الترف كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة، ويكثر من الخروج للحج ومعه مائة من الفقهاء، وإذا لم يحج أحج ثلثمائة

رجل بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة. وكان يكره الخوض والمراء فى الدين، وتسرع دمعته حتى تخضل لحيته لوعظ الواعظين .

وما دام أمر الخلفاء كذلك ، فليس يصح فى العقل اتخاذهم لمثل أبى نواس جليسا ملازما ، وأنما جاز لأبى نواس أن يكون ذلك النديم حين ولى الخلافة محمد الأمين .

ولما كان الرشيد قد أصبح بعد نكبة البرامكة صاحب الأمر كله والمتصرف برأيه دون سواه، والمطلق اليد فى خزائن الدولة والمتحكم فى رقاب الرعية، فقد أقبل أبو نواس يتحين المناسبات الرسمية ليمدحه فيمن كان يمدحه الشعراء المنقطعين لذلك . وهو وأن لم يكن فى طبقتهم فى هذا الباب قد كانت له مع ذلك فى المديح أبيات يعدونها من غرر الشعر وفرائده .

وقد نظم الشاعر فى انتصارات جيوش الخليفة فى أسيا الصغرى على جيوش الروم – حين قطع صاحبهم نقفور الجزية – قصيدة فى مدح الرشيد يقول فيها :

إنى حلفت عليك جهد ألية (1)
قسما بكل مقصر ومحلق
لقد اتقيت الله حق تقاته
وجهدت نفسك فوق جهد المتقى
وأخفت أهل الشرك حتى إنه
لتخافك النطف التى لم تخلق
وبضاعة الشعراء إن أنفقتها (2)
نفقت وإن أكسدتها لم تنفق

وفى سنة ١٨٩ تم للرشيد أخذ البيعة بولاية العهد لأولاده الثلاثة الأمين فالمأمون فالمؤتمن، واحدا بعد الآخر .

فقال شاعرنا فى ذلك :

١– الألية : القسم .
٢– انفقتها : روجتها .

تبـارك من سـاس الأمور بعلمـــــه

وفضل هـــارونا على الخلفـــــاء

نزال بخـــير ما انطـوينا على التقـى

وما ســـاس دنيانا أبو الأمنـــــاء

ولما أن شخص هارون الرشيد إلى بلاد الروم لعشر بقين من رجب عام ١٩٠ واتخذ قلنسوة يلبسها مكتوبا عليها :

(غاز – حاج) تبارى الشعراء فى ذكر ذلك ، فقال أبو المعالى الكلابى :

فمن يطلب لقـــاءك أو يــــــرده

فبالحرميـن أو أو أقصـى الثغور

ففى أرض العدو على طمـــــر(١)

وفـى أرض الترفه فوق كـــور(٢)

وكان شاعرنا أبو نواس ممن قالوا فى ذلك :

هـــــارون ألفنا ائتلاف مــودة

مـــاتت لها الأحقاد والأضـــغان

فى كـــل عام غزوة ووفـــــادة

تنبت بين نواهما الأقـــــران(٣)

حـــج وغزو مات بينهما الكـــرى

باليعملات شـعارها الوخـدان(٤)

فالشاعر كان عند باب الرشيد فى زمرة المادحين ، ولم يكن له قط بالنديم.

على أنه لم يكن موفقا فى هذا الميدان ، بل كان لغيره فيه قصب الرهان ، سواء أكان السبب قصور شعره أم غير ذلك من ماجريات أمره . فعزم على الخروج إلى مصر .

---

١ – الفرس الجواد الطويل القوائم

٢ – رحل البعيـــر.

٣– تنقطع حبال المطايا

٤– اليعملات الذوق المطبوعة على العمل السريعة

وقضى أبو نواس فى مصر حوالى سنة فى ولاية الخصيب من شعبان ١٩٠ إلى رجب سنة ١٩١هـ لم ينس فيها بحوثه وشطحه وأسماره الطريفة، ثم عاد إلى بغداد بعد أن أصاب من عطاء أمير خراجها «أبو نصر الخصيب»، ما أسعده وأبهجه، ليعود إلى حياة اللهو والمجون فى بغداد[1] ، ولكن الخليفة هارون الرشيد كان يزيد مع السن والعلة شدة وتزمتا، وزاد على ذلك أن قد ذهب البرامكة فلم يغن عداتهم غناءهم ، ولم يقوموا مقامهم، فكان هو الناهض وحده بأعباء الحكم وضبط الأمور وتوجيه الجيوش لحرب الروم وقمع الفتن فى الاطراف . فكان من ذلك ما لوحظ على الرشيد من السرعة إلى الغضب وانزال النقمة وهذا التغير فى حال الرشيد، كان قمينا بأن يصيب شاعرنا السكير الماجن بالخيبة المرة فى عهد بغداد الجيد، كما كان نذيرا بما سوف ينزل به من عنت شيد. وبلغ من ذلك أن ندم أبو نواس على عودته إلى العراق :

رجعت الى العـراق برغـم أنفـى
وفارقت الجـزيرة والشـــآما
على شـاطىء البليـخ وسـاكنيه
ســلام مسـلم لقى الحمـاما

فلقد حبسه الخليفة فى المطبق[2] أكثر من مرة لشربه الخمر مجاهرا بها متهتكا فيها. فكان يقضى وقته يعبث مع من يكون معه فى الحبس ويلاعبه الشطرنج والنرد .

واتهم ابو نواس أكثر من مرة بالزندقة، ومن ذلك أنه كان قد انصرف من بعض المواخير سكران، فمر بمسجد قد حضرت فيه الصلاة . فدخل ، فقام فى الصف الأول، فقرأ الامام الآية : «قل يا أيها الكافرون»، فقال أبو نواس من خلفه «لبيك» . فلما قضيت الصلاة اندفع اليه المصلون ولببوه. وانتهى أمره إلى أن دفع به حمدويه صاحب الزنادقة فحبسه اياما. ولولا علم حمدوية انه ماجن وليس هو بحيث يظن، لكان قد قضى عليه .

١- عبد الرحمن صدقى / أبو نواس / دار الهلال / ص ١٨٦
٢ - سجن بغداد فى عهد العباسيين .

وكان لبعض الأمراء وأصحاب الكلمة ترات عند أبى نواس لهجائه لهم، ومن هؤلاء سليمان بن جعفر بن أبى جعفر المنصور . وكان أ بو نواس قد هجاه وحاف عليه، ولم يعدل بعدها الي مدحه ولم يرجع عن مكروهه . فاتفق أن جلس الرشيد مجلسا، وأفاض من حضره فى ذكر المطبوعين من الشعراء المحدثين ، إلى أن اتصل الذكر بأبى نواس، فغمز عليه سليمان بن جعفر ، فقال : «يا أمير المؤمنين : كافر بالله ، لا يرعوى من سكره ولا يأنف من فاحشة». وقد كان نمى إلى الرشيد من خبره شىء. فقال : «يا عم ! هل تأثر عنه من ذلك شيئا ؟» قال : «قوله يا أمير المؤمنين :

يا نا ظــرا فى الدين ما الأمــر ؟
لا قدر صــح ولا جـــبر !
ما صــح عندى من جميــع الذى
يذكــر إلا المــوت والقــبـر

ثم قوله أيضا :

باح لســانى بمضمر الســر
وذاك أنى أقــول بالدهــر
وليس بعد الممات مرتجــع
وإنما الموت بيضــة العقــر

فاستشاط الرشيد غضبا وطار شققا وقال: «علي بابن الفاعلة ». فقال رجل من جلساء الرشيد: «أن أذن لى أمير المؤمنين انشدته من قول هذا الفاسق ما هو أشنع وأفظع مما أنشده أبو أيوب». قال: «هات!» قال: «قوله فى غلام نصرانى:

تمــر فاستحــييك أن أتكلمــا
ويثنيك زهو الحسن عن أن تسلما
ويهتــز فى ثوبــيك كل عشيــة
قضيب من الريحان شب منعمــا

بحسبك أن الجسم قد شفه الضنى

وأن جفـونى فيك قـد ذرفت دمـا

أليس عظيمـاً عنـد كـل موحـد

غزال مسيحـى يعـذب مسلمـا

فلولا دخـول النـار بعد بصـيرة

عبدت مكان الله عيسى بن مريمـا

فازداد حنق الرشيد عليه فقال: «يا أمير المؤمنين ! وأشنع من ذلك». قال: «هات!»

فأنشده قوله فى غلام نصرانى آخر:

ولحة بالعذل ذات نصيحـة

ترجو إنابة ذى مجون مـارق

بكرت تبصرنى الرشاد وهمتى

غير الرشاد ومذهبى وخلائقى

فأجبتها: «كفى ملامـك إننى

مختار ديـن أقسـة وجثالـق

والله لـولا أننى متخـوف

أن أبتلـى........................

وقطع الانشاد. فقال له الرشيد: «بماذا ويلك!» فاستعفاه، فقال: «ويلك! بماذا» فقال:

......بامـام جور فاسـق

فضج المجلس بأهله، وأنكر الرشيد نفسه ثم قال: «امض» فقال:

لتبعتـه فى دينـه ودخلـته

ببصيرة منى دخول الوامـق

إنى لأعـلم أن ربى لم يكـن

ليخصهم إلا بدين صـادق

فقال الرشيد للفضل : «برئت من المنصور أن لم يبت هذا الكلب فى المطبق، ولتنكرنى قولا وفعلا» وكان أبو نواس نمى إليه الخبر فساخ فى الأرض. فوجه الفضل من ساعته من أخذ بأفواه السكك، فوجده، فأودع سجن «المطبق». ثم أعانه الفضل بن الربيع بعدها إلى أن أطلق، فقال فى ذلك :

الله فرج لى برأى

«الفضل» من حلق الكبول

وأقالنى عنت العثار

وقد أيست من المقيل

والشاعر كلما تمثل ما كانت عليه حاله فى غيابة المطبق فى انتظار الموت وقد انقطع به الرجاء واستحكم اليأس، ثم عاد إلى نفسه فوجده طليقا معافى، تملكه الشعور العميق الصادق بأن حياته دين عليه «للفضل» وأنه أصبح ملك يمينه غير منازع وعبد معروفه :

أصبحت - غير مدافع - مولاكا

والحظ لى فى أن أكون كذاكا

لله درى! أى رهن منية

بالأمس كنت، وهالك لولاكا

أصبحت معتدا على بنعمة

ما كان ينعمها على سواكا

وكان خاتمة المطاف ما أبلغ الرشيد من قول شاعرنا يفتخر بقحطان التى يدعيها، ويسب عدنان ويهجوها فى قصيدة طويلة يقول فيها:

فافخر بقحطان غير مكتئب

فحاتم الجود من مناقبها

ولا ترى فارسا كفارسها

إذ زلت الهـام عن مناكبـــــــها

واهج نــزارا وأفـــر جلــدتها

وهتـــك الســتر عن مثـــالبها

وكانت العصبية لاتفتأ تهيج بين اليمانية والنزارية كما يعلم قراء التاريخ العربى وكانت فى ذلك العهد تهيج بالشام خاصة، وقد بلغت فى بعض أطوارها هيجا تشيب لهوله الولدان، وقتل فيها خلق كثير. وكان الخليفة يلاقى كل مرة عنتا فى اخمادها، ويوجه لذلك القواد والعسكر الكثيف، وكانت مع ذلك لا تسكن حتى تعود. فلما بلغت إلى سمع الخليفة قصيدة شاعرنا اشتد به الغضب. ولم يشفع للشاعر استثناؤه للنبى محمد دون سائر قريش «ذات المتاجر» فى هجائه للقبائل العدنانية، ولا تنبيهه إلى أن شطر الخليفة يمان من ناحية جدته :

أحـــبب قريشاً لحب «أحمدها»

واعرف لها الجزل من مواهبـها

إن قريشـا إذا هى انتســـبت

كان لها الشـــطر من مناسبها

فأم مهدى هاشم – أم موسى الخير منا، فأفخر وسام بها

أن فاخرتنا فلا افتخار لها

إلا التجارات من محاسبها

وانها – إن ذكــرت مكرمة

جاءت تجاراتها بغـــالبها

وإذا كانت هذه الشفاعات لم تنفع الشاعر عند الخليفة، فذلك أن الأمر كان يعدو شخص الخليفة الهاشمى القرشى إلى تعريض البلاد للفتن الداخلية.

فأمر الخليفة بالشاعر المنكود فألقى فى غيابة «المطبق» انتظار للموت فبقى فيه دهرا فجعل يتشفع بالوزير الفضل ابن الربيع وهو لا يستطيع له شيئا. فقال متحسرا لما صار إليه، متندما لما تورط فيه، متسخطا على الفضل :

على مركبى منى السـلام، وبزنى
وغـدوات لهو قد فقـدن مكانـى
فلـو أن خدنى القريبين أبصـرا
خضـوعى للسجان ما عرفانـى
لو أبصـرانى والقيود تقـودنى
ومشـى إلى البواب بالنجشان[1]
لحى الله من أمسى يرشح نصره
بفك إسـار منه عند يمـانى
ومالى وقحطـانا وبث مديحها
ونصبى لها نفسـى بكل مكان
فإن أمس لا تخشى لسيفى فتكة
فلا تأمنن يا «فضل» فتك لسانى
وأنى لأرجـو أن أراك كجعفر [2]
ونصفاك فوق الجسـر يقتسمان

وكتب إلى الحسين الخادم مولى هارون الرشيد متزلفا يرجو وساطته، ويعلن له توبته وأنابته :

تلقى المراتب للحسـين ذليلـة
وإذا سـواه يرومها تتصـعب
إن الأمـام إذا اجتبـاك لسـره
لمسـدد فيـما أتى ومصـوب
لم يبـل مثـلك عفة فيمـا بـلا

١- النجش : الاسراع، والمبالغة فى الثمن بقصد التغرير وايقاع الغير .
٢- هو جعفر البرمكى الوزير وقد قتله الرشيد وصلبه ببغداد فجعل نصف جثته على الجسر الأعلى ونصفها على الجسر الأسفل ونصب رأسه على الجسر الأوسط .

وحـــزامة فى كـل أمـــر يحـــزب

وخلطـــت خوفـك للالـــه بخـــوفـه

فعلمت مـــا تأتــــى وما تتجـــنب

أبلغ - هـــديت - إلى الامام رسالة

عنــــى بأنــــى بعدهـــا أســـتعـتب

وشهـادتـــى أنـــى حليف عبـــادة

فابـلوا على الأيـــام ذاك وجربـــوا

وكتب بعد أن ضاق به اليأس من هول السجن ولياليه الموحشة إلى عبيد الخادم مولى الملكة زبيدة :

جعلـــت عبيداً دون ما أنا خـــائف

وصيرته بينى وبين يد الدهــــــــر

أشار إليه الناس من كل جـــانب

وقالـــوا أبو عمرو لها وأبو عمـــرو

ثم التجأ إلى الأمير الحسين بن عيسى بن أبى جعفر المنصور مستغيثا مستصرخا ومعلنا توبته وندمه :

رفع الصــــــــوت فنـــــــادى

يا أبـا عـيســـى الجـــــوادا

كن عمـــــــاداً - يا ابن من كان

غيــــــــاثـــا وعمـــــــــادا

وتـــــــدارك جســـــدا قـــد

مـــات أو قـد قـيــل كـــادا

قـل لـه إن قال «هل تـــاب؟»

«نـــعـــــم تـــــاب، وزادا»

واضـــمن التـوبــة عمـــــن

كلـــما أطـــراك عـــــادا

ولما أعيته الحيلة ولم تنفع الشفاعة، توجه إلى الخليفة نفسه ضارعا مستغفرا ذاكرامحامده معددا مآثره :

بعفوك – لا بجودك – عـذت لابل
بفضـلك يا أميـر المؤمنيـنـا
فـلا يتعـذرن علـى عفـو
وسـعت به جميـع العـالمـينا
فإنـى لم أخـنـك بظهر عيـب
ولا حدثـت نفسـى أن أخـونا
بـراك اللـه للإسـلام عـزا
وحصـنا دون بيضـته حصـينا
فشـفع حسن وجـهك في أسير
يدين بحبـك الرحمـن دينـا
إذا مـا الهـول بـدار قـوم
فليس لجـار مثلك أن يهـونا

ولكن الخليفة كان فى شغل عنه بتوجيه قواده هنا وهناك لمداركة الفتوق قبل اتساعها فى أطراف ملكه. ولقد شخص بنفسه مع اشتداد العلة عليه لحرب رافع بن ليث الثائر فى خراسان مصطحبا معه المأمون الذى جعلت له الولاية عليها، وقد استخلف ابنه القاسم الملقب بالمؤتمن على الرقة وكان الخليفة قد اتخذها مقرا له ونقل إليها خزانته فى ذلك الحين، واستخلف على بغداد عاصمة الخلافة ولى عهده والخليفة من بعده «محمد الأمين».

الفصل الرابع

ليالى هارون الرشيد

مأساة هارون الرشيد مريرة

لو تدركـــين مرارة المأســـــاة !

نزار قبانى

بين الكاس والطاس

كان الغناء والشراب[1] أشهر ضروب اللهو فى حياة العباسيين وكانت دنياهم تموج بالطرب والغناء واقتناص اللذائذ والشهوات والإسراف فيها ليلا ونهارا. وأصبح الغناء والطرب وما يصاحبه من رقص وخمر وأسمار وفكاهات ضرورة من ضرورات حياة أمراء العصر العباسى وأعيانه لا يعيشون إلا به، ولا يستمتعون بجمال الحياة إلا على ضرب الأعواد ونقر الدفوف وترنيم الأشعار وألحان الغناء ودلادل الجوارى الحسان! وكانت قصور الخلفاء والأمراء والأعيان وسراة العرب تموج بألوان الطرب والغناء فى مجالس الأنس والبهجة تملأها القيان والمغنيات طربا وسحرا موصولا ولكن أفخم هذه المجالس وأحفلها بضروب المتعة مجالس الخلفاء والبرامكة الذين قادوا الخلفاء وفتحوا لهم أبواب اللهو على مصراعيها وأهدوهم الجوارى الحسان بعد اختيارهم من أسواق النخاسة فى دقة وقد اشتهرت مجالس هارون الرشيد، وفاقت شهرتها أية مجالس أخرى، لما حفلت به من ألوان اللهو والطرب والغناء، وما ازدانت به من بدائع الحسن وروائع الجمال من القيان الحسان، والجوارى الفاتنات. تروى عن الرشيد حكايات كثيرة فى هذا المجال منها ..أنه أرق ذات ليلة فخرج متخفيا إلى دار إبراهيم الموصلى فصفت له الجوارى الحسان بجانبيه، ورحن يضربن ويغنين، فاندمج الرشيد مع سحر غنائهن وحسنهن، فأسرف فى الشراب وقد انتشى من هذا السحر الفياض، سحر الجمال وسحر الغناء، فلما غنت إحداهن:

يامورى الزند قد أعيت قوادحه

أقبس إذا شئت من قلبى بمقياس

---

١ - فايد العمروسى الجوارى المغنيات / ص ٢٤ .

مـا أقـبح الناس فى عينى وأسمجهم

إذا نظرت فلم أبصـرك فى النـــاس

فطرب الرشيد وانتشى وصاح طربا يستعيد الصوت مرارا، ثم سأل الجارية عن صاحب الغناء فأسرت فى أذنه لأخته «علية بنت المهدى»! وعلية بنت المهدى أخت الرشيد، كانت من أجمل النساء كما كانت تقرض الشعر وتغنيه، وهى إن كانت بنت الخليفة المهدى إلا أن أمها كانت من جوارى «المروانية المغنية» اشتراها المهدى سراً، وكتم أمرها عن أبيه المنصور حتي مات شهرها، وكان أخوها الرشيد يعجب بها ويفضلها فى الغناء! وروى أن الرشيد اصطبح فى مجلس غناء حضرته أكثر من ألفى جارية ما بين ساقية ومغنية، فغضبت أم جعفر وأرسلت تشكو إلى «علية» فخرجت عليه مع جواريها وهى تغنى:

منفصـــل عنـــى ومـــــا

قلبـــى عنـــه منفصـــل

يا هاجـــرى اليـــوم لمـــن

نـــويت بعـــدى أن تصـــل

فطرب الرشيد وفض مجلسه..

ومن أشهر جوارى هارون الرشيد اللواتى فتن بهن وعرف بحبهن: سحر، وضياء، وذات الخال «خنث» واشتهر عن الرشيد قوله فيهن شعراً:

إن سحـــراً ،ضيـــاء وخـنـــث

هن ســـــحر وضيـــاء وخـنـث

أخذت ســـحرا، ولا ذنـــب لها

ثلث قلـــبـــى وترباها الثلث

ويقول أيضا فيهن:

ملك الثــلاث الأنسات عنــانى

وحـللن من قلبى بكل مكــــان

مالى تطاوعنى البرية كلهـــــا

وأطيعهن وهن فى عصيـــانى

ما ذاك إلا أن سلـطان الهـوى

وبه قـوين أعز من سلطـــانى

وحيث حج الرشيد كان ينشد فى جواريه الثلاث قوله :

ثلاث قد حللن حمسى فـــؤادى

ويمطـين الرغـــائب فى ودادى

نظـــمت قلوبهـن بخيــط قلبى

فهـــن قرابتـــى حتي التنـــادى

فمن يك حـل من قلبـــى محــلا

فهـــن من النـــواظر والســـواد

ومن أشهرهن «ذات الخال» وكان أسمها الحقيقى «خنث» أو «خشف» وإنما سميت «ذات الخال» لوجود خال على شفتها العليا زادها فتنة وسحراً! وكانت لرجل يدعى أبو «قرين» ويكنى «أبا الخطاب» وهو مولى للعباسة بنت المهدى، فأعتنى بها فثقفها وتلقت الغناء عن كبار المغنين، ومنهم ابراهيم الموصلى حيث فتنت هذه الجارية «ابراهيم» فغدا بها مجنونا، وقد عرفت بالجمال والدلال ومواهب الإغراء، وزاد تشبيب ابراهيم الموصلى بها فشهرها بشعر ومنه :

ما بال شمـس أبى الخطــاب قد حجـبت

يا صاحبـــى لعل الســـاعة أقـــتربت ؟

أولا، فمـا بـــال ريــح كنت آنســـــها

عــادت إلىّ بصـــد بعـــدما جنبـــت؟

إليك أشـــــكو أبا الخطاب جــــارية

غــــريرة بفؤادى اليـــوم قد لعبـــت

وأنت قيمـــــها، فانـظر لعاشـــــــقها

ياليتـــــها قربت منـــى، وما بعــــدت

وأنشد إبراهيم الموصلى يتغزل فى « ذات الخال» وقد برّح به الشوق وأضناه الجوى

فـمن يرحـــــم مجنـــــونا

بـذات الخـــال مفتـــونا؟

أبـى فيـها فمــا يســــــلو

وكـل النـــاس يســــلونا

فقــد أودى به الســــقم

وقــد أصبــح مجنـــونا

ولما أشتـهرت «ذات الخال » وتحدث عن فتنتها وسحر غنائها الأشراف والمغنون وأهل السواق خاصة بعد شعر الموصلى فيها، بلغ خبرها هارون الرشيد، فاشتراها بسبعين ألف درهم، لتكون لنفسه وقلبه خاصة، فنعم بها وبغنائها، وتقول الروايات أنه قد مال إليها ميلا شديدا وفتن بها حتى طغى حبها عليه، ولكن غيرته العنيفة عليها نغصت.عليه سعادته! وتروى حكايات فى هذا المجال أن الرشيد سألها يوما فى مجلس شراب معها، وقد شدد عليها أن تصدق:« أكان بينك وبين إبراهيم الموصلى شئ ؟» فأطرقت ذات الخال وتلكأت، ثم قالت فى خوف وفزع: «أجل ... مرة واحدة»! فغضب، ونهشته الغيرة، فأقصاها عنه، ونقص من قدرها !

ورووا إنه قال يوما لجلسائه: «أيكم لا يبالى أن يكون كشخانا» (عديم الغيرة) حتى أهب له ذات الخال»؟ فصمت القوم، ولكن وصيفه «حموية» قال «أنا» ، فوهبها له! ،لما بلغ إبراهيم الموصلى الخبر أغتم وتأذى وأنشد فيها يغنى بقلب جريح وفؤاد مكلوم : !

أتحســـب ذات الخـــال راجـية رباً

وقــد سلبــت قلبــا يهيم بها حـــبا

وما عذرها؟ نفسى فداها ولم تدع

على أعظمي لحما ولم تبق لى لبا

ولكن هل سلاها الرشيد بعد أن وهبها لوصيفه «حموية» ؟ الحقيقة أن الرشيد لم يطق بعدها عنه، فاشتاق يوماً فنادى «حموية» وقال له: «ويلك يا حموية.. وهبناك الجارية لتسمع غناءها وحدك» ؟ فقال حموية: « وما تأمر يا أمير المؤمنين» ؟فقال الرشيد « نحن عندك غداً» فأسرع حموية وزين الجارية بجواهر قيمتها أثنا عشر ألف دينار أستأجرها من بعض الجواهرية، وفى الموعد المضروب أخرجها للرشيد وقد لعب الشراب برأسه، فلما أبصرها الرشيد قال «ويلك يا حموية.. من أين لك هذا، وما وليتك عملا تكسب منه مثل هذا... ولا وصل إليك منى مثل هذا القدر؟ فصدقه الخبر، فبعث الرشيد على الفور لإحضار أصحاب الجواهر، فاشتراها منهم ووهبها لذات الخال، ثم حلف ألا تسأله فى يومه هذا أمرا إلا قضاه، فسألته أن يولى حموية الحرب والخراج بفارس سبع سنين ففعل! وحدثوا أنه كان لذات الخال دالة على الرشيد قبل أن يهبها .. ومن ذلك هذه القصة الطريفة.. دعته إليها يوما فوعدها أن يصير إليها فى مقصورتها، وبينا هو إليها اعترضته جارية أخرى أغرته فدخل عندها، وشق ذلك على ذات الخال، فأقسمت أن تغيظه.. فدعت «بمقراض» لتقص به الخال» الذى يزين خدها.. وبلغ ذلك الرشيد فشق عليه ذلك وجزع ثم استدعى الفضل بن الربيع وقال له : «انظر من بالباب من الشعراء» ؟ .

فقال الفضل :

«العباس بن الأحنف» !

فقال الرشيد :

«ادخله»

فادخله، وقص الرشيد عليه الخبر، وقال له :

تخلصت ممن لم يكن ذا حفيظة

ومِلت إلى من لا يغيره حـــــــــال

وإن كان قطـع الخال لما تعطفـــت

على غيرها نفسى فقد ظلم الخـــال

فشرب الرشيد وطرب على هذا الشعر وغنائه، وقام إلى ذات الخال فترضـاها وأمر للعباس بن الأحنف بألفى دينار!

ومن شعر العباس بن الأحنف فى «ذات الخال» :

ألا ليت «ذات الخال» تلقى من الهوى

نظير الذى ألقـــى فيلـتئم الشعب

إذا رضيت لم يهننى ذلك الرضـــا

لعلـــمى أنه سوف يتـــبعه عتـــب

وأبكى إذا أذنبت خوف صـــدودها

وأســـألها مرضـــاتها ولا الذنــب

وصالكـم صرم وحبكــــم قلـــى

وعطفـكم صـد، وسلمكـم حـــرب !

وقد قيل أن ذات الخال، كانت أبرع جوارى الرشيد لافى الغناء وحده، ولكن كأمرأة وأنثى فاتنة لعوب ! ونروى هنا بعض القصص والأسمار عن حكاية ذات الخال مع عشاقها من الشعراء والأمراء..

حدث إسحاق أن الرشيد بعث الى «ذات الخال» وقد مضى الليل إلا أقله، فحضرت إليه فأجلسها بجانبه وقال لها : «غنى» فغنت لإبراهيم الموصلى :

أما تعلم ذات الخال فوق الشفة العليـــا

بأنى لست أهوى غيرها شيئا من الدنيا

وأنى عن جميع الناس إلا عنهم أعمـى

وأنى لو سقيت الدهر من ريقك لا أروى

قال : فطرب الرشيد...

ومن مجالس أنس هارون الرشيد : دخل الموصلى علي الرشيد وقد طافت به الذكر ، فقال له: «يا ابراهيم.. هات بعض ما قلت فى «ذات الخال» وغنى به فاندفع ابراهيم يغنى:

تـــقول ذات الخـــال لـــى ياخـلىّ البـال

فقلت «حاشاك من أن يكون حالك حالـــى»

أعرضـــت عنى إذ أوقعـــنى فى الحـــبال

إن الخــــلى هو الغـــافل الذى لا يـــبالى

فطرب الرشيد وقال : يا ابراهيم غنى، فاندفع يغنى :

ياليت شعرى كيف ذات الخــــــال

أم أين تحسـب حالها من حالـــى

هـل أنكـرت فمها وضــمت مـــرة

رأســى إليها ثم قالـــت مــــالى

ألذلة أقصيتنى.. نفســـى فـــداؤك

أم أطعـــت مقـــالـــة العــــذال؟

والله ما استحســنت شيئا مـــونقا

ألتـــذه، إلا خطـــرت ببــــالــــى!

فتجهم الرشيد، وقال :

«أصحيح هذا يا أبراهيم» ؟ .

فقال ابراهيم الموصلى:

«هو لك يا أمير المؤمنين»

ثم استزاده الرشيد الغناء، فغنى ابراهيم:

ياليت شـــعرى والنســـــاء غـــوادر

خلف الوعـــود بهن غير قليــــــــل

هــل وصل ذات الخال يوما عـــــائد

فتزول لوعـــــاتي وحـر غليلكـــــــى؟

أم قد تناســـت عهـــدنا وإخـــــالها

عن ذاك حــــالت دون كل خليـــــــل

فهز الرشيد رأسه طربا وقال :

«صدقت يا ابراهيم» !

وهارون الرشيد له حكايات لا تنتهى مع الجوارى المغنيات وغير المغنيات.. ومنهن الجارية «سحر» الذى بعث إليها لتصير إليه، فاعتلت عليه ذلك اليوم بعلة، ثم جاءته من النحو فقال الرشيد :

أيا من ردّ ودى أمس لا أعطكه اليــــــوما

ولا والله لا أعطيك إلا الصد واللـــــــوما

وإن كان بقلبى منك حب يمنع اللــــــــوما

أيا من سمته الوصل فأغلى المهر والســــوما

ومن الجوارى المغنيات اللاتى استهوين الرشيد المغنية«دنانير» التى اشتهرت بحسنها وصوتها العذب، وهى جارية كوفية، عرفت بحلاوة الحديث وقراءة الشعر والشغف بالأدب، وكان مولاها محمد بن كنُاسة «الشاعر العباسى» المعروف، فنشأت فى داره وتأثرت بشعره، ثم بلغت شهرتها يحيى بن خالد البرمكى، فاشتراها وانتقلت إلى قصر ذلك الوزير العبقرى الشهير فى عصر الرشيد، وقد أضفى عليها نعيم القصور وترفها جمالا على جمال، فشرعت تستكمل ثقافتها الغنائية، وتتلقى الفن على أصوله من أساطينه من أمثال ابراهيم الموصلى وابنه إسحاق وابن جامع، ومازالت تتلقى الغناء وتتفنن فيه حتى نبغت، وحتي قال عنها ابن جامع وكنت أنازل «دنانير» جارية البرامكة وكثيرا ما كانت تغلبنى !

كان يحيى البرمكى معجبا كل الإعجاب «بدنانير» وكان شديد الغيرة عليها، كما كانت أيته الفنية التى يتيه بها على المغنين والمغنيات !

وبلغ خبرها الرشيد ، وقد عرف مكانة «دنانير» فى قلب وزيره يحيى البرمكى وما تتصف به من الملاحة والإجادة فى الغناء ، وكان يكثر من زيارته فى منزله، ويقضى عنده أكثر لياليه للتمتع بها فشغف بها ، وبلغ من فرط إعجابه بها أن أهداها ذات ليلة «عقدا» قيمته ثلاثون ألف دينار وكثرت زيارات الرشيد لدنانير واشتهر امر زيارته لها.. وتحدث الناس كيف ينتقل الخليفة إلى جاريه ؟

وساء زوجته «زبيدة» أم جعفر ما صار إليه أمر الخليفة ؛ كما استاءت من تصرفاته السابقة مع بعض جواريه ، فشكت استياءها منه إلى أهله وذوى المكانة فى حاشيته، فصاروا جميعا إليه وعاتبوه، ولكنه قال لهم :

«مالى أرب فى دنانير إلا فى غنائها .. فتعالوا واستمعوا اليها، فان استطعتم عنها سلوا سلوت معكم» !

فصار بعض عمومته إلى منزل يحيى البرمكى ، واستمعوا إلى دنانير وهى تغنى :

هذى دنانير تنساني وأذكـــــرها

وكيف تنسى محبا ليس ينســاها

أعوذ بالله من هجران جــــارية

أصبحت من حبها أهـذى بذكراها

فلما سمع أعمامه هذا الغناء اهتزوا طربا، وعذروا الرشيد، ثم قاموا إلى أم جعفر فناشدوها ألا تسرف فى عتاب الرشيد فانه مولع بغنائها الساحر، ولا يستطيع عنه سلواً.. وقبلت أم جعفر الفوز فلم تعد إلى لومه ، بل وأهدته عشر جوار من جواريها، منهن «مارية» أم المعتصم ، وفراجل، أم المأمون، و«فارهة» أم صالح بن الرشيد !

وظل الرشيد مفتونا «بدنانير» وكان فى استطاعته أن يشتريها من سيدها لولا أن ذلك السيد هو وزيره يحيى بن خالد البرمكى، وكانت له على الرشيد دالة قاهرة، ورأى لا يرد !

ولكن تغيرت الظروف والأحوال ، وسنحت للرشيد هذه الفرصة بعد مأساة البرامكة، والتى فتك فيها هارون الرشيد بهم ومحا آثارهم ومنهم وزيره يحيى البرمكى فأمر بنقل «دنانير» إليه فنقلت ، ثم أمرها يوماً أن تغنى ، فأبت قائلة :

«يا أمير المؤمنين .. إنى آليت ألا أغنى بعد سيدى أبداً !

فغضب الرشيد وأمر بصفعها فصفعت وأقيمت على رجليها، وأعطيت العود، فأخذته وشرعت تغنى ودموعها تسيل على خديها :

يا دار سـلمى بنـازح السـند
بين الثنايا ومسـقط «اللـبد»(١)
لما رأيت الديـار قد درسـت
أيقنـت أن النعيـم لم يعـد

ولكن الرشيد لم ييأس من استمالتها اليه، وحاول بعظمته وفخامته وسلطته القاهرة معها، فلم يستطع أن يمحو من قلبها حزنها على البرامكة ، وأن ينسيها الماضى ، فقد شعرت أنها قد فقدت كل شيء بضياع البرامكة فلم تعد تحس للحياة طعمها، ولم تدخل البهجة قلبها، رغم فخامة القصور، وأبهة النعيم ومحاولات استرضاء أمير المؤمنين نفسه فظل الوفاء بقلبها مقيما للسيد الغائب، وظل قلبها موصدا فى وجه كل من حاول استمالتها بالذهب والمال وبسيف المعز وذهبه !

فأحس الرشيد باليأس معها، وقطع أمله فيها، وتأكد من إخلاصها ووفائها النادر لسيدها ، فرق لها، وأطلق سراحها لتعيش أينما تريد وأينما تحب .

ولكن قلب دنانير كان قد سكنه الحزن المقيم ، فلم تعد تشعر بعد نكبة البرامكة بفرحة أو بهجة، وعاشت في دار من دورهم – وقد بليت «لا تفرح لنعمة ، ولا تطرب لعشق أو غناء ، وظلت تسترجع ليالى الهناء الضائعة ، وذكرى الحبيب الغائب !

١- أسماء أماكن .

الموسيقى والغناء فى عصر الرشيد

يرى د. محمود أحمد الحفنى أن الغناء والموسيقى فى عهد الرشيد لم يكن غزلا وتشبيبا وكفى، إنما كان الغناء والموسيقى يدعوان إلى الفضيلة، ويحثان على مكارم الأخلاق، وكان الرشيد لا يرى فى الموسيقى طربا ولهواً فحسب . بل كان ينشد فيها أغراضاً أخرى أسمى من ذلك .

يقول د. الحفنى : (1)

شب الرشيد فى رعاية أبيه المهدى الذى كان يعشق الموسيقى ويجيد الغناء فى صوت حسن حتى روى أنه كان أجمل الناس صوتا. وكان قصره مجمعا للموسيقيين يرتع فى بحبوحته الرشيد وأخوه ابراهيم بن المهدى أول أولاد الخلفاء وأشهرهم ذكرا فى الغناء. كان ابراهيم من أعلم الناس بالنغم والوتر والايقاعات وأطبعهم على الغناء وأحسنهم صوتا، وكانت أخته عليه بنت المهدى من أحسن الناس صوتا وأظرفهم حديثا، تقول الشعر الجيد وتصوغ فيه الألحان الحسنة حتى قيل فيهما : «ما اجتمع فى الأسلام قط أخ وأخت أحسن أذن ليس بعجيب أن يجمع قصر الرشيد فى ظل خلافته إلى أهبة الملك وعظمة السلطان أبهج أنواع وأروع ألوان الموسيقى والغناء .

كان الرشيد قوى السيطرة ، فى سعة من السلطان، عظيم الجاه ، يمتد سلطانه وملكه من مشارق الأرض إلى مغاربها، وكان تقيا، ورعا، متمسكا بأهداب الدين ، قائما على التكاليف الشرعية، شديد المحافظة عليها، إذ كان يصلى - فيما نقله الرواة - فى كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا، إلا أن تعرض له علة. وبرغم ما كان يستنفده هذا الملك الواسع والسلطان العريض من وقته وجهده، لم تشغله تصاريف أمور هذه الدولة المترامية الاطراف ، ولا شديد ورعه وقيامه بواجبه الدينى، عن أن ينال نصيبه من متع الحياة ، والاستمتاع بما تصبو اليه نفسه من الموسيقى والغناء. فكان

---

1 - الهلال د. محمود الحفنى / ١٩٤٠ / ص ١١٢ .

بعد فراغه من النظر فى أمور رعيته يدخل عليه المغنون فيتبارون فى حلبة الغناء، وبينه وبينهم ستارة كثيرا ما كان يرفعها إذا تملكه الطرب واستولى عليه السرور وخاصة إذا كان المغنون من أعلام هذا الفن .

بلغ من عناية الرشيد بالغناء وشغفه بالسماع أن اختيرت فى عصره المائة الصوت المختارة، فقد كلف الرشيد ثلاثة من أعلام الغناء فى عصره هم : إبراهيم الموصلى، واسماعيل بن جامع، وفليح بن أبى العوراء أن يختاروا له من ألحان العرب مائة صوت (لحن)، ثم أمرهم أن يختاروا عشرة منها، ثم أمرهم أن يختاروا ثلاثة من العشرة ، فكانت تلك الأصوات الثلاثة لحنا لمعبد من خفيف الثقيل الأول أقرب الألحان إلى تلك الأغانى إذ أنها ولا ريب مشتقة من أغانى العرب فى الأندلس أن لم تكن هى بذاتها .

وإذا كان العرب لم يعنوا بتدوين أغانيهم تدوينا موسيقيا يحفظ ألحانها على مر الزمان فقد كان لهم فى دولة العباسيين، وبخاصة فى عصر الرشيد نوع من التدوين الموسيقى تواضع عليه أعلام أهل الصنعة فتداولوا بواسطته ألحان تلك الأغانى. وهذا أبو الفرج الاصفهانى يحدثنا فى كتابه الأغانى عن ذلك فيقول :

«إن اسحاق كتب إلى إبراهيم بن المهدى بجنس صوت صنعه، وأصبعه ومجراه ، وأجزاء لحنه فغناء إبراهيم من غير أن يسمعه ، فأدى ما صنعه . وقيل : كتب اليه بشعره، وايقاعه ، وبسيطه، ومجراه، وأصبعه، وتجزئته، وأقسامه، ومخارج نغمه، ومواضيع مقاطعه، ومقادير أدواره، وأوزانه، فغناه».

وهذا ولا ريب نوع من التدوين الموسيقى ، قوى الايضاح، مبين التعبير، رابط لدقائق اللحن، لاكما يزعم بعض علماء الموسيقى من الافرنج أن العرب لم يهتدوا إلى أى نوع من أنواع التدوين الموسيقى .

وفى عهد الرشيد ظهر نوع المواليا، فكان أول ظهور هذا النوع فى بغداد بعد الفتك بالبرامكة .

قال الجلال فى شرح الموشح : إن هارون الرشيد لما قتل جعفر البرمكى أمر ألا

يرثى بشعر فرثته جارية له فى بيتين على وزن خاص، وجعلت تنشدهما وتقول : يا مواليا ! يا مواليا ! وهما :

يا دار أين ملوك الارض أين الفرس
أين الذين حمــوها بالقــنا والترس
قالت تراهم رمم تحت الاراضى الدرس
سكـوت بعد الفصاحة ألســنتهم خرس

فكان هذا أول «وال وضع.

والرشيد فيما يحدثنا اسحق بن ابراهيم الموصلى، هو من بين خلفاء بنى العباس من جعل المغنين مراتب وطبقات ، على نحو ما وضعهم اردشير بن بابك وأنوشروان .

ولقد اشتهر من أعلام الطبقة الأولى رجالا ونساء : حكم الوادى، وابراهيم الموصلى، وابن جامع، ويحيى المكى، وزلزال، وفليح بن أبى العوراء، وعبد الله بن دحمان، والزبير بن دحمان، واسحاق الموصلى، ومخارق، ومحمد بن الحارث، وعلية، ودنانير، وذات الخال .

أما أصحاب المعازف والصنج والطنابير، فقد زعم اسحاق انهم كانوا المرتبة الثالثة ولا ريب فى أن عهد الرشيد كان أزهى العصور فى كثرة آلات الموسيقى العربية وتنوعها فقد استعمل العرب منها وقتئذ : الدف، والغربال، والبندير، والمصافق، والكنسات، والنقارة، والقصعة، والطبل، والكبر، والمزهر، والعود، والشهرود، والطنبور، والرباب، والناى، والقصبة، والقصابة، والبوق، والكوس، والكوبة، والعير، والبربط، والقضيب، والشاهين، والسفاقس، والشيزان، والكنارة، والعرطبة، والصفارة، والشبابة، والارغن، والقانون، والسرناى، واليراع، والموصول.

ولعل هذا الازدهار منشؤه ان الرشيد كان واسع الدراية بالغناء، عالما بأسرار هذه الصناعة، لا تفوته دقائقها، حتى لقد حدث أن كان بحضرته ابراهيم الموصلى وابن جامع وهما أماما هذا الفن فى عصره، فغنى ابراهيم صوتا أخطأ فيه، فقال له الرشيد

لقد اخطأت فى موضع كذا وموضع كذا، فاعتذر ابراهيم مقرا بخطئه فى هذين الموضعين. فلما انصرفا من الغناء قال إبراهيم لابن جامع : والله ما أعلم أن أ[دا يعرف هذا الغناء معرفة أمير المؤمنين . قال : حق والله له انسان يسمع الغناء منذ عشرين سنة مع هذا الذكاء الذى هو فيه .

ومما ينهض دليلا على واسع خبرة الرشيد بفن الغناء وعظيم اطلاعه علي قديمه وحديثه ما روى من أن اسحاق بن ابراهيم الموصلى دخل عليه ليلة فغناه صوتا، فقال له الرشيد : لمن هذا الصوت ؟ قال لى، قال الرشيد : قد كنت سمعت لحنا آخر . فقال اسحاق: نعم لحن ابن محرز، قال : هاته ، فغناه اسحاق ، فطرب الرشيد، ثم قال لاسحاق : غن ، فغناه :

أفاطـــــــم مهلا بعد هذا التدلل

وان كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

فقال الرشيد : ليس هذا اللحن أريد ، غن رمل ابن سريج . فغناه اسحاق .

ولم تكن ناحية الغناء والطرب لتصرف الرشيد عن تقديره جزالة الشعر، وحسن معانيه، وقوة تراكيبه، وسلاسة أسلوبه. فكان كثيرا ما ينقد المغنى فى تلك الناحية .

نزل الرشيد فى طريقه إلى «طوس» بشيراز ، فلما جلس كان ابراهيم الموصلى أول من دخل عليه وغناه، فأمر له بألف دينار، ولم يستحسن الشعر، وقال له: يا ابراهيم صنعتك فيه أحسن من شعرك . فخجل وقال :

يا سيدى شغل خاطرى الغناء فقلت لوقتى ما حضرنى .

وبلغ من معرفته قوة التأليف فى الغناء ، وتقديره سمو معانيه، أنه كان يجيز المغنى ببيت واحد إذا نال منه قبولا ما لا يجيزه لآخر عن كثير من الغناء .

غنى ابن جامع الرشيد يوما هذا البيت :

أنى امرق مالى يقى عرضـــى

ويبيت جارى آمنا جهلـــــى

ولم يزد عليه شيئا، فأعجب به الرشيد، واستعاده مرارا، وأسكت لابن جامع المغنين جميعا وأجازه .

وغنى اسحاق يوما الرشيد هذه الأبيات : -

وآمرة بالبخل قلت لها اقصـــــــرى
فـــذلك شـــىء ما اليـــه ســـــبيل
أرى النـــاس خلان الكـــرام ولا أرى
بخيـلا له حتى الممات خليـــــــل
وأنــى رأيت البخل يزرى بأهلـــــه
فأكرمت نفسى أن يقال بخيـــــل
فعالى فعال المكثرين تجمــــــــلا
ومالـــــى كما قد تعلمين قليـــــل
وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنـى
ورأى أميـــر المؤمنـــين جميـــــل

فقال الرشيد لا تخف إن شاء الله، ثم قال له : لله در أبيات تأتينا بها، ما أشد أصولها ، وأحسن فصولها وأقل فضولها .

ولا عجب بعد ذلك أن نرى فى الرشيد ميلا إلى تقدير مواهب المغنين حتى ليأنس بهم، ويؤاكهلم ، ويجزل لهم فى العطاء.. فلقد تناقلت الاخبار إن ماناله منه ابراهيم الموصلى وحده بلغ أكثر من مائتى ألف دينار .

بل لقد بلغ من ديمقراطية الرشيد أن كان ينتقل إلى ابراهيم الموصلى فيزوره فى بيته، ولما أشتد به المرض دخل يعوده.. ولما مات ابراهيم الموصلى صلى الرشيد عليه بنفسه .

بل لقد بلغ من تقدير الرشيد لاعلام هذه الصناعة أن آسى اسحاق بن ابراهيم

وحنا عليه، حتى خفف من لوعته، وهدأ من ثائرة حزنه .

حدث اسحاق الموصلى قال : دخلت إلى الرشيد بعقيب وفاة أبى ، وذلك بعد شهر من يوم وفاته، فلما جلست ورأيت موضعه الذى كان يجلس فيه خاليا دمعت عينى ،فكفكفتها، وتصبرت، ولمحنى الرشيد، فدعانى اليه، وأدنانى منه، فقبلت يده ورجله والارض بين يديه ، فاستعبر، وكان رقيقا، فوثبت قائما، ثم قلت :

فى بقـــاء الخليفـــة الميمـــون

خلـــف من مصـيبة المحـــزون

لا يصـــبر المصـــاب رزءا إذا ما

كـــان ذاع مفـــزع إلى هـــارون

فقال لى : كذلك والله هو ، ولن تفقد من أبيك ما دمت حيا إلا شخصه. وأمر باضافة رزقه إلى رزقى وقال : اجعلوا رزق ابراهيم لولده، وضاعفوا رزق اسحاق .

ولم يكن تقدير الغناء والمغنين عند الرشيد مقصورا على فنهم، بل كان يتعداه إلى أشخاصهم، فكان يحوطهم بالرعاية التى توجب لهم الاحترام، ومساواة الامراء.. وكان لا يرى فضلا لاحد عليهم، ولا يسمح لانسان أن ينتقصهم ، أو يغمطهم، تعاليا عليهم ، وتساميا. بل لقد انتصر لاحدهم على بعض ولد المهدى، حين كاثره بأبوته، وشريف أرومته .

فهذا اسحاق كان عند الرشيد يوما وعنده ندماؤه، وفيهم ابراهيم بن المهدى أخوه ، فغنى اسحاق للرشيد صوتا، فأقبل عليه ابراهيم بن المهدى وقال له : ما أصبت يا اسحاق، ولا أحسنت . فقال له اسحاق : ليس هذا ما تحسنه ولا تعرفه، وأن شئت فغنه، فإن لم أجدك انك تخطىء فيه من ابتدائك إلى انتهائك فدمى حلال. ثم أقبل على الرشيد فقال : يا أمير المؤمنين! هذه صناعتى وصناعة أبى، وهى التى قربتنا منك، واستخدمتنا لك، وأوطأتنا بساطك، فإذا نازعنا فيها أحد بلا علم لم نجد بدا من الايضاح والذنب. فقال : لا غرور ولا لوم عليك. ثم قام الرشيد لقضاء حاجة ، فأقبل

ابراهيم بن المهدى على اسحاق يشتمه، ويهدده، ويزنبه ، ويفاخره، ويكاثره بأبوته، فذمه اسحاق ورد عليه تعنيفه، ولو أنه يعلم أنه ابن الخليفة وأخو الخليفة . فلما عاد الرشيد الى المجلس، وثب ابراهيم فجلس بين يديه وقال : يا أمير المؤمنين ! شتمنى وذكر أمى، واستخف بى فتقصى الرشيد الأمر، ثم قال لابراهيم : ماله ذنب شتمته فعرفك أنه لا يقدر على جوابك، ارجع إلى موضعك وامسك عن هذا. فلما انقضى المجلس، وانصرف الناس جميعا، أمر اسحاق بألا يخرج. وخرج كل من حضر حتى لم يبق غيره. فأقبل عليه الرشيد وقال له : ويلك يا أسحاق، أتراني لم أفهم قولك ومرادك ؟ قد والله زنيته ثلاث مرات، اتظن لو ضربك ابراهيم أكنت أقتص لك منه فاضربه وهو أخى يا جاهل؟ أتراك لو أمر غلمانه فقتلوك أكنت أقتله بك ؟ فقال اسحاق: يا أمير المؤمنين قد والله قتلتنى بهذا الكلام. ثم انصرف اسحاق، وطلب الرشيد ابراهيم لساعته، فأحضر، فلما دخل عليه وبخه، وجهله، وقال له : اتستخف بخادمى ونديمى، وابن نديمى، وابن خادمى، وصنيعتى وصنيعه أبى، وتستخف بمجلسى، وحضرتى، تقدم على هذا وأمثاله وأنت مالك للغناء، وما يدريك ما هو حتى تتوهم انك تبلغ مبلغ اسحاق الذى غذى به وعلمه، وهو صناعته، ثم تظن انك تخطئه فيما لا تدريه ، ويدعوك إلى اقامة الحجة عليك فلا تثبت لذلك وتعتصم بشتمه، أليس هذا مما يدل على السقوط وضعف العقل، وسوء الأدب، وقلة معرفة، وقلة مبالاة بالخطأ والتكذيب والرد القبيح. ثم قال : والله العظيم ، وحق رسوله، وألا فأنا نفى من المهدى ، لئن أصابه أحد بسوء، أو سقط عليه حجر من السماء، أو سقط من على دابته ، أو سقط عليه سقفه ، أو مات فجأة ، لا قتلك به، والله والله والله، فلا تعرض له، وأنت أعلم قم الآن فاخرج . فخرج ، وقد كاد يموت .

وما كان الغناء والموسيقى فى عهد الرشيد غزلا وتشبيبا وكفى، انما كان الغناء والموسيقى يدعوان الى الفضيلة ويحثان على مكارم الاخلاق. وكان الرشيد لا يرى فى الموسيقى طربا ولهوا وحسب، انما كان ينشد فيه أغراضا أخرى أسمى من ذلك .

دخل ابراهيم الموصلى على الرشيد فقال له : أنا اليوم كسلان فان غنيتنى صوتا

يوقظ نشاطى أحسنت صلتك ، فغناه :

ولم يـــر فى الدنيــا محبــان مثلنــا
على ما نلاقى من ذوى الاعين الخـزرى
صفيــان لا نرضى الوشاة إذا وشــوا
عفيفــان لا نخشى من الأمر ما يــزرى

ولئن اشتهر عن الرشيد كثرة حضوره مجالس الجوارى والقيان، يسامرنه، وينشدن بين يديه عذب الاغانى وساحر الألحان، لقد كان فنهن وحده مقصده، وغناؤهن دون سواء غرضه، لأن منهن من كانت تفوق الرجال فنا وصوتا، ومنهن من اعتزت بها الموسيقى العربية وكان لها أثر كبير فى ازدهارها ..

الفصل الخامس

لماذا ليالى الأنس فى حياة الرشيد ؟

وإذا كان اسم الخليفة هارون الرشيد قد أرتبط بليالى الأنس والبهجة والمتعة بين المحظيات الحسان والجوارى الفاتنات، والقيان المغنيات، ورويت عنه الأسمار والحكايات فى الأدب الشعبى العربى خاصة فى «ألف ليلة وليلة» حتى وصفه بعض الأدباء[1] بأنه يكاد يكون علماً على بغداد، بل ربما كان أدل عليها اليوم فى نظر الشعوب الحديثة من شأنها الرفيع وفى مكانها البارز فى التاريخ، ذلك لأن آثارها المادية قد ألح عليها طغيان الدهر وفيضان النهر حتى محواها، أما هى فى هذا الكتاب فلا يزال سناها باهيا لم يخب، وصداها مدويا لم ينقطع، فهو للحضارة العربية فى بغداد متحف زاخر بالأعاجيب، حتى أصبح لفظ بغداد فى جميع اللغات مرادف للعمران الزاهر والترف العجيب، واسم الرشيد رمزا للعدل الشامل والزمن الخصيب» وإذا كانت حكايات ألف ليلة وليلة قد حوت العديد من الأسمار والقصص من حياة الرشيد المليئة بالمتعة والأنس، مما أثار الكثير من النقد لحياة هذا الخليفة الكبير حتى أطلق عليه لقب «صريع الغوانى» فإن د. زكى مبارك يستعرض هذا الجانب البهيج من حياة الرشيد ويطرح لنا وجهة نظره حول هذا الجانب من جوانب شخصية الرشيد وأهميته فى حياة هذا الحاكم الكبير، ومدى ضرورة هذا الجانب أو ضرره بالنسبة للحاكم، فيرى أن الرشيد قد عرف مجالس الأنس التى تسمح بها منزلة خليفة عظيم له سلطات في المغرب والمشرق، وله خلق ينهاه عن التبذل، وله دين يحميه من السقوط فبماذا يعلل د. زكى مبارك هذا الجانب الذى أثار العديد من الأقاويل والأنتقادات

يقول د. زكى مبارك فى تحليله لمجالس الأنس فى حياة الرشيد [2]

«ولكن هل عرف الرشيد مجالس الأنس؟

وكيف وقد قالوا أنه كان يحج عاما ويغزو عاما؟

وكيف يصح لخليفة مثل هارون الرشيد أن يلهو ويلعب، وكان يحمل أثقل الأعباء فى

١- أحمد حسن الزيات/ في أصول الأدب / القاهرة ١٩٥١ / ص ٨٥

٢- ا . د. زكي مبارك / ملامح المجتمع العراقي / القاهرة ١٩٤٢/ ص ٢٧٣

توطيد ملك بنى العباس؟

«كيف يمكن لمثل هذا الخليفة أن يعرف مجالس الأنس ومن حوله عيون وأرصاد يحصون عليه جميع الهفوات ليسوئوا سمعته فى الأقطار الاسلامية، وليفتحوا الباب لمكايد خصومه الأعداء من أنصار بنى أمية وأشياع أهل البيت؟

أن القول بأن الرشيد عرف مجالس الأنس يحتاج إلى بينات، فهل نجد هذه البينات؟

لن نصل إلى ما نريد إلا إذا واجهنا الموضوع بصفة جدية، وتناسينا التوقر الذى يلتزمه من يؤرخ حياة الخلفاء ليخلع عليهم أثوابا من التزمت، وليجعلهم ناسا خاملين لا يعرفون من الحياة غير لون واحد هو التزام الجد الصارم فى جميع الأحوال. يجب أولا أن نتمثل حيوات الأمم التى عرفها المسلمون بفضل الفتوحات، لأن الأمم المغلوبة تؤثر فى الفاتحين تأثيرا شديدا وتنقل إلى أخلاقهم بعض ما تملك من محاسن وعيوب والذى يظن أن الأمم تموت حين تنهزم يخطئ أقبح الخطأ، لأن الهزائم السياسية لا تمحو خصائص الأمم والشعوب، وأن نقلتها من حال إلى أحوال فما هى الأمم التى عرفها المسلمون بفضل الفتوحات؟عرفوا الشام، وكانت للشام تقاليد فى مجالس الأنس والشراب ورثوها عن الرومان وعرفوا مصر، وكان لأهل مصر تقاليد فى مجالس الأنس والشراب ورثوا بعضها عن أسلافهم من الفراعين، وتعلموا البعض الأخر عمن صحبوا من اليونان وعرفوا فارس. وكانت فارس ملاعب لأهل الخلاعة والمجون وعرفوا العراق، وكان العراق من أقدم الاقطار التى استقطرت ثمرات النخيل والأعناب والذين قرأوا كتاب «نفح الطيب» يذكرون أن المقرى قرر أن أهل الاندلس امتازوا من بين المسلمين بشرب الخمر علانية على قارعة الطريق.

فما معنى ذلك؟

معناه أن المسلمين حين دخلوا الأندلس وجدوها كسائر البلاد الأوربية تشرب الخمر علانية، فاستباح بعض شعرائهم وأدبائهم ما استباح الأندلسيون من الجهر بمعاقرة

الصهباء والتاريخ يحدثنا أن عمر بن الخطاب تخوف من الفتن التى يتعرض لها الجنود الذين اشتركوا فى فتح مصر، لأنه كان يعرف أن مصر لذلك العهد كانت تكثر فيها المواخير والحانات بفضل ما ورثت من تقاليد اليونان والرومان. ويحدثنا التاريخ أيضا أن جنود العرب كانت لهم حوادث فى الشام وفارس والعراق وهل نسيتم أن عمر بن الخطاب سمع مالا يرضيه من أخبار معاوية وقد بلغه أنه يحيا حياة مترفة تذكر بحياة المترفين فى الرومان؟

ثم يستطرد الدكتور زكى مبارك فى تحليل أسباب الأنس فى حياة الرشيد فيقول «ماذا أريد أن أقول؟ أريد أن أقرر بصراحة أن البلاد التى فتحها المسلمون أثرت فيهم بعض التأثير فخلقت فيهم أذواقا لم يكن يعرفها العرب الجاهليون.وأثب بعد ذلك وثبة سريعة فأقرر أن حياة الترف عرفها المسلمون أول ما عرفوا فى رحاب دمشق وطن الأعناب والزيتون. ففى دمشق وضع الحجر الأول لحياة الترف فى قصور الخلفاء وفى دمشق تذوق العرب أفاويق السرور على نحو ما كان يتذوق الرومان وفى دمشق عرف العرب أول مرة كيف ينظمون الشعر الرقيق فى وصف مجالس الأنس والشراب. وفى دمشق عرف العرب أن فى الدنيا آفاقا غير آفاق الصحراء والواقع أن الشام كانت فى نظر العرب صلة الوصل بين البداوة والحضارة : فالشامى بدوى حين يلتفت إلى الحجاز، وحضرى حين يلتفت إلى بلاد الروم، وهو منذ الأعصر القديمة فتى مرح يتطلع إلى اصطناع مذاهب الظرفاء فى فنون المعاش والواقع أن اشراف الأقطار الشامية على بحر الروم أمدها بطبائع تشبه الطبائع اليونانية والمصرية، فهى بلاد تعرف الوافدين من كل أرض، وتأخذ من الأخلاق والعادات ماتريد ومالاتريد.

فكيف كان بلاط العباسيين فى بلاد الرافدين؟

من المؤكد أنه فى بداية أمره لم يكن صورة من البلاط الأموى فى دمشق، وأريد البلاط الأموى المرح الذى عرف حياة اللهو والفتون في العهد الذى أشرفت فيه الدولة الأموية على الانحطاط والزوال .ومع ذلك لم يكن بد من أن يتأثر البلاط العباسى بالموجة العاتية التى مزجت بين شمائل أهل فارس وشمائل أهل العراق: فالدولة

العباسية قد قامت بجهود أهل فارس، وأن شئت قلت هى لون جديد فى الحياة العربية، ولان العرب فى مطلع خلافة بنى العباس كانوا بدأوا يندمجون اندماجا كليا فى الشرق، وكانوا قد استوحشوا من البداوة والخشونة، واستأنسوا بالحضارة واللين.

وهنا نقطة يجب النص عليها بلا تحفظ، لأن لها دلالة على المعنى الذى نقصد إليه من حرص العرب فى ذلك الوقت على إيثار الحياة الحضرية، وهذه النقطة هى التلاحى الذى وقع بين أدباء العرب وأدباء الفرس فى عهد فتنة الشعوبية فقد كان أدباء الفرس يقولون أن أسلافهم عرفوا الكؤوس والأباريق علي حين لم يعرف أسلاف العرب غير الضباب واليرابيع!

وكذلك كان العربى فى تلك الأيام يتنكر للبداوة ما استطاع، ليثبت أنه مخلوق لطيف يعرف معانى الطرب والأنس، ويتذوق الطيبات من حياة الترف واللين، فإن سمعتم أن العربى كان قد خرج على الرزانة والعقل فاعرفوا أنه لم يصنع ذلك إلا ليقال أنه لم يعد من أبناء الشيح والقيصوم، وإنما هو نديم ظريف يعرف كيف يكون أدب الرجال فى حضرة الكأس والورد والآس!

يضاف إلى ذلك أن أدباء العرب في العراق كانوا يعرفون أنهم ورثوا أرض بنى ساسان، وكان ايوان كسرى لا يزال يحفظ رسوم الحرب ورسوم اللهو والقصف، وكانت أخيلة الماضى المرح تواجههم فى كل مكان فإن سمعتم أبو نواس يقول:

فلو رد فى كسرى بن ساسان روحه

إذن لاصطفانى دون كل نديم

فاعرفوا أنه يتمثل صورة الفتوة المرحة التى عرفها العراق فى العصور الكسروية .

أترونني وصلت إلى إقناعكم بأن البلاط العباسى لعهد الرشيد كان يتأثر البلاط الفارسى لعهد صاحب الأيوان؟

ثم يقول الدكتور زكى مبارك(١)

---

(١) نفس المرجع

«هل نصدق كل ماروى عن مجالس الرشيد؟ هو قد عرفها بلا شك، وإنما هى رجعة إلى أساليب من الحياة عرفها العراق قبل الرشيد بأجيال قد تقولون: وهل معنى ذلك أن نصدق جميع ما حكاه الرواة عن مجالس الرشيد وأجيب بأن من الجريمة أن نصدق كل ما رواه الرواة عن مجالس الرشيد .

أولا – لأن تلك الروايات وصلت فى بعض الأحوال إلى السخف والهزل.

ثانيا – لأن الرشيد كانت له ذاتية محترمة تأبى عليه الأسفاف

ثالثا – لأن الرشيد كان له خصوم يسرهم أن يشيع أنه من أهل الخلاعة والمجون والحق كل الحق أن الرشيد عرف مجالس الأنس فى الحدود التى تسمح بها منزلة خليفة عظيم له سلطات فى المشرق والمغرب، وله خلق ينهاه عن التبذل، وله دين يحميه من السقوط.

ولكن ما الذى أوجب أن يعرف الرشيد مجالس الأنس؟

«خذوا منى الخبر اليقين،فقد عرفت العراق وعرفنى، وشربت فيه أكواب الشهد وأكواب العلقم، وعرفت أيامه البيض ولياليه السود، فهو البلد الوحيد الذى تسجع فيه الحمائم أو تنوح فى كل حين. جو العراق حاد جداً، فهو شديد البرد في الشتاء وشديد القيظ في الصيف، وهو من أجل ذلك يجنى أشنع جناية على الحواس والأعصاب، والعراقى هو الإنسان الوحيد الذى يغنى حين يطرب، وهو حين يغنى يفرض عليك أن تحزن وتلتاع، لأنه فى قراره نفسه إنسان يضنيه الحزن والألتياع .

فهل يكثر على الرشيد أن يعرف مجالس الأنس وقد جلس على عرش العراق؟

وكيف ينجو من هموم الملك إن لم يسترح بالأنس ساعة أو ساعتين فى كل مساء؟

أن الرشيد حين جلس على عرش العراق فهم أنه قد ملك أسباب السيطرة على المشرق والمغرب، لأن العراق كان مكن من جلسوا على عرشه بأن تكون لهم مطامع سياسية واقتصادية، وكانت الدنيا قد سمحت فعلا بأن يكون للرشيد ملك فى بعض الممالك الأسيوية والأفريقية، ملك ضخم يوحى إليه بأن السحاب لن يجود إلا فى أرضه حيث وقع.

ويخلص د. زكى مبارك إلى أن من حق الرشيد أن يلهو وأن تتخلل حياته ليالى الأنس والبهجة فيقول: (١)

---

(١) المرجع السابق .

ولكن من الذى يضمن أن يدوم ذلك الملك؟ أن الأخبار كانت ترد كل يوم أو كل أسبوع بظهور الثورات فى الممالك العربية والأسلامية. وكان الرشيد يقضى الأيام والليالى فى ملافاة أسباب تلك الثورات. وكانت ترد إليه الأخبار بأن من ولاته من يتمرد عليه فى السر أو فى العلانية، فكان يبدد من وقته وعافيته ما يبدد ليستصلح أولئك الولاة فهل يكثر عليه أن يعرف مجالس الأنس من وقت إلى وقت ليتناسى تلك الأخبار المزعجات؟ وكان الرشيد قد ابتلى فى زمانه بفتنة فارسية أوقد نارها وزراؤه من الفرس، وكانوا قوما لهم مآرب وأغراض، وكانوا يتسامون إلى إحلال السيطرة الفارسية محل السيطرة العربية ، وكان له فى مدافعتهم جهاد ضعفت عنه ذاكرة التاريخ .

فهل يكثر عليه أن يعرف مجالس الانس لتخمد حواسه عن تعرف ذلك البلاء؟

وكان للرشيد أزواج وابناء، ونحن نعرف حال الرجل الكريم حين يروضه الواجب على تحمل هذه التكاليف من مداراة الازواج ومراعاة الابناء .

فهل يكثر على الرشيد أن يعرف مجالس الانس ليتخفف لحظات من تلك الاعباء ؟

وكان الرشيد قبل كل شيء وبعد كل شيء رجلا قضت المقادير بأن يساير الناس والزمان ، وذلك يفرض عليه أن يعيش بأعصاب سليمة من أكدار التعب والاعباء فهل يكثر عليه أن يلهو لحظة أو لحظات من حين إلى حين ؟

ومع هذا كله عرف الرشيد بالتجمل فى حياته الداخلية فلم يتقول الناس عليه الاقاويل إلا بعد أن مات .

ما هذا الذى أصنع ؟

أرانى أحتال فى تصحيح مركز الرشيد بتبرئته من التهالك على مجالس الإنس فهل يعرف القراء كيف استفاد الشعر والغناء من اقبال الرشيد على مجالس الآنس ؟

لقد أعددت نحو مائة شاهد تنطق بفضل الرشيد على الشعر والغناء، وكان فى مقدورى أن أورد تلك الشواهد ، لولا علمى بأنها فى متناول جميع الادباء وأن نشرها يعد من الحديث المعاد .

قرأت فيما قرأت أن الرشيد كان يغشى مجالس الغناء متنكرا، وذلك يشهد بأنه كان من أصحاب الاذواق ، والذوق فضل من الله يؤتيه من يشاء .

وقرأت فيما قرأت أن الرشيد كان يختبر أشعار الغناء، وذلك يشهد بأنه كان من أصحاب الذوق الادبى، والذوق الادبى موهبة قليلة الامثال .

وقرأت فيما قرأت أن الرشيد كان يذهب متنكرا إلى شواطىء دجلة حين يدهمه الأرق ليسمع أغانى الملاحين ، فهل رأيتم شاهدا أقوى من هذا الشاهد على هيام ذلك الخليفة بتعقب الحياة الشعبية وارتياحه إلى الأنس بأغانى العوام من الناس ؟

وقرأت فيما قرأت أن الرشيد كان غزير الدمع وأن ندماءه كانوا يعرفون ذلك فكانوا ينغصون عليه أوقات انسه بذكر الموت ليروا بأعينهم كيف تبكى الاسود ..

أن الرشيد الذى افترى عليه المفترون أنه كان يسكر حتى ينام فى مكانه هو نفسه الرشيد الذى اذاع المحامد العربية فى كل أرض، وهو نفسه الرشيد الذى رقم اسمه على جبين الزمان، وهو نفسه الرشيد الذى عرف المسلمون فى زمانه معنى العزة والرخاء وهل عرفت شواطيء دجلة والفرات أندى كفا وأسد رأيا من الرشيد ؟

هل تسامع المسلمون بخليفة أطيب ذكرا وأعلى قدرا من الرشيد ؟

فكيف أن يكون الرشيد صار شخصية عالمية شرق سحرها وغرب ، ولم تترك مكانا قريبا أو سحيقا إلا دخل إليه دخول الأمن إلى القلوب والنور إلى العيون ألا يكفى أن يكون الرشيد آخر خليفة عربى دعته همته إلى أن يقول «أنا الدولة قبل أن يقول ذلك أحد ملوك الفرنسيس ؟

هل سمعتم أن العرب كانت لهم أمبراطورية سليمة بعد الرشيد ؟

هل سمعتم أن المسلمين عرفوا الحرية الفكرية قبل الرشيد أو بعد الرشيد ؟

أن الذين جعلوا عصر الرشيد عصرا ذهبيا لم يكونوا خاطئين ، ففى عصر الرشيد تهيأ العرب للعلوم والآداب والفنون ، وفى عصره قامت دولة الشعر والغناء، وفى عصره ازدهر الفقه والتصوف والحديث ، وفى عصره تنفس الزنادقة والمرتابون فحفل الأدب

العربى بألوان كثيرة من صور القلوب والعقول .

وفى نهاية ، تحليله يصل د. زكى مبارك إلى خلاصة رأيه من خلال عرضه لمختلف جوانب شخصية هارون الرشيد التى قد تبدو متناقضة أمام الآخرين ،مثيرة للتساؤل والحيرة فيقول (١) .

ثم ماذا ؟ أترونني وصلت إلى جلاء هذا الجانب من حياة الرشيد ؟

أؤكد لكم أن كتب الأدب صنعت فيه خيرا مما صنعت لأنها أوردت الشواهد والامثال ، ولكنى أردت أن أضع قيودا يقف عندها من يراجع مجالس الرشيد فى الكتب الأدبية، لأن مؤلفى تلك الكتب لم يكونوا يريدون غير المؤانسة والامتاع ، وصاحب الأغانى شهد على نفسه بذلك فى مقدمة كتابه النفيس ، فقد قرر أن الرونق الذى «يروق السامع ويلهى الناظر، هو الغرض الأصيل من وضع ذلك الكتاب .

ومن يدرى فلعلنا نقضى على الرشيد بما لا يريده ، لعل تقاليد الناس فى زمانه كانت تسمح بأن يضاف اليه من أخبار الآنس ما سجله أمثال أبى الفرج الاصفهانى .

ولكنا قرأنا أن الرشيد كان لا يسمح لشاعر بأن يمدحه بقصيدة مفتتحه بغزل مكشوف فيه اشارة إلى التقبيل والوصال .

وقرأنا فيما قرأنا أن الرشيد كان يعجب بكفاية أبى نواس من الوجهة اللغوية والفقهية ، ولكنه كان يأسف لشهرته بالمجون ، ولولا ذلك لولاه القضاء .

وهذه المناسبة تفتح الباب لفائدة أدبية ، فمن هو أمير المؤمنين الذى عناه أبو نواس حين قال :

ولاح لحانى كى يجىء ببدعة
وتلك لعمرى خطة لا أطيقها
لحانى كيلا أشرب الراح أنها
تورث وزرا فادحا من يذوقها؟
فما زادنى اللاحون إلا لجاجة
عليها لأنى ماحييت رفيقها

(١) المرجع السابق .

أأرفضها والله لم يرفض اسمها

وهذا أمير المؤمنين صديقها؟

أيكون أمير المؤمنين هو الخليفة محمد الأمين ، ولعل هذه الأبيات كانت السبب في أن يأمر الأمين بحبس أبي نواس عقابا له على أدمان الشراب ..

ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

أريد أن أقول أن الرشيد صار على توالي الاجيال صورة للشخصية المرحة الطروب ، فتقول عليه الناس ما شاءوا ليرضوا ما في نفوسهم من أهواء وميول .

وكتاب «ألف ليلة وليلة» وكتاب «أعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس ؟

وكتاب «مسالك الابصار» وكتاب «نهاية الارب» وكتاب «زهر الآداب» وما إلى هؤلاء المؤلفات ، كلها جميعا قد جعلت من الرشيد صورة للمرح والطرب والفتون .

فما معنى ذلك ؟

معناه أن الروح العربية كانت في شوق إلى شخصية تصور ما في ضمائرها من الأنس بمعاني الحياة في أوقات الصفاء .

ومعناه أيضا أن الرشيد الذي تعرفه كتب الأدب غير الرشيد الذي يعرفه التاريخ .

إن عصر الرشيد هو بالاجماع عصر الحضارة العباسية لأنه قدم إلى الناس جميع ما يشتهون من ضروب الحلم، والجهل ، والعقل والجنون .

ومن أجل هذا يسمي العراقيون بغداد «مدينة الرشيد» مع أنها «مدينة المنصور» ، وهم على حق لأن بغداد لم تأخذ زينتها إلا في عهد الرشيد .

وأجمل شوارع بغداد لهذا العهد شارعان اثنان : الأول شارع الرشيد، والثاني شارع أبي نواس.

فأما شارع الرشيد فهو الشارع الكبير الذي خصه الرصافي بقصيد رنان وهو يصور الحياة الاقتصادية في بغداد ، وأما شارع أبي نواس فهو شارع خفيف الروح يواجه دجلة ، ولا يعرفه البغداديون إلا في أوقات النزهة عند الأصيل وفي هدآت المساء

أليس معنى ذلك أن بغداد حفظت عهد الرشيد وعهد شاعر الرشيد .

الفصل السادس

المرأة فى حياة هارون الرشيد

وقبل أن نتناول المرأة فى حياة هارون الرشيد كأم وزوجة وأبنة، علينا أن نلقى الضوء على المرأة فى عصره، وعن العوامل النفسية وراء تكوين هارون الرشيد الحاد، وعشقه للمرأة بصفة خاصة، وهل كان بالفعل يتسم بعقدة «السيكومونيا» أى الولع بالجنس أما تأثير المرأة فى حياته فيلقى د. ابراهيم ناجى من خلال دراسته لعلم النفس وللتاريخ الأضواء على هذا الجانب من حياة الرشيد فيقول: (١)

يقول جان جيرودو فى مسرحيته «امفريون» :«المرأة مخلوق ثلثه عاصفة وثلثه هرة وثلثه زبد...»

والحق أنه صادق كل الصدق فى هذا التعريف، وينقصه أن نقول أن نسبة المزيج تتغير، وتبقى العناصر ثابتة!

أجل تتغير الأزمنة والبيئات والتعليم والأوطان والأجناس، وتبقى المرأة على الأطلاق: عاصفة وهرة وزبداً. فتكون عاصفة حين يطلق لها العنان فتتحكم، وتباح لها الحرية التى حرمت منها فتستبد، وحين تجد من يدللها فتصير حاكما بأمره!

وتكون هرة، أى تنكمش وتداهن وتطلب الدفء والأمان، فى عهود الترف المقرونة بسيطرة الرجل.

وتكون زبداً حيث تكون الرجعية وحيث تكون الأحوال البدائية، وحيث لا يترك لها من الأمر إلا ما هو مستطاع فى طبيعة الأنثى التى تلد وتربى...

فلكى ننصف المرأة فى عهد هارون الرشيد، يجب أن نلم أولا بالتاريخ، ثم بالعوامل المسيطرة في ذلك العهد، وبالتيارات المتضاربة، ومقدار الرخاء، ومقدار ما أتيح للمرأة أن تتعلم وأن ترى الرجل وتختلط به، ثم نلم بما يجرى فى بلاط الملك الحاكم، فالشعوب صور مصغرة من ملوكهم والمصادر التى نعتمد عليها هى: كتب التاريخ، وهى كثيرة ولا يختلف الواحد عن الأخر من الناحية التاريخية البحتة أى من ناحية سرد الحوادث. ثم كتب الأدب ولدينا منها الأغانى ودواوين الشعراء.

١- الهلال ١٩٤٠ / ص ١١٥٨ .

ودواوين الشعراء فى رأيى هى المرائى الصادقة والسجلات التى يرجع إليها وأنه ليكفينا ديوان أبى نواس للإحاطة بكل ما نريد أن نعرفه عن ذلك العهد. هذا إذا تدبرنا الوقائع وحللنا الشعر على ضوئها.

ولا يفوتنا أن نذكر «ألف ليلة وليلة» ذلك الكتاب الأدبى الرائع الذى يدلنا أبلغ الدلالة على ما كان عليه عهد الرشيد من الغنى «الخيالى» والترف المذهل للعقول ويسترجع د. ناجى تاريخ هارون الرشيد ليتعرف على أثر المرأة فى حياة الرشيد منذ طفولته وصباه حيث أن لذلك دلالة كبيرة على ما كان للمرأة من أثر فقد كان الحكم لأخيه الهادى. ولكن أم هارون الرشيد كانت تتدخل فى السياسة، وتتصرف فى الرجال وكانت تريد أن تضع هارون الصغير على العرش مكان أخيه لتكون هى المسيطرة، وقيل قد انتصرت أخيراً، لأن الهادى مات - على زعم الرواة - مسموماً بواسطتها!فهذه هى الرواية فى أولها تبدأ فتجد الميدان خالياً.. ولكن هارون الرشيد كان رجلا، وكان القلب الرحيم الباكى، وبين القسوة البالغة، بين حب السرور والملذات، وبين الخوف من الخطيئة ومن عقاب الله. وهو بلا شك كان حاد العاطفة متقد الإحساس. وكان يحب «المرأة» بنوع خاص أجل كان لا شك يعلم تأثيرها فى المجتمع، كان يعلم من سطوة أمه، ومن حبه لزوجته، ومن الأماء والسرارى اللواتى كان يشتريهن بثمن باهظ - آلاف الدنانير - وكن يحفظن الشعر وينشدن فى مجالس الغناء، وبعضهن كن يساجلن الشعراء على البديهة، وأخريات كن يكاتبنهم من وراء حجاب، وغيرهن كن يعقدن «صالونات» يتبارى فيها الأدباء والشعراء. وما قولك بعهد كانت فيه «الجوارى» بهذه الدرجة من التفوق والتذوق والأدب والفهم، دعك من الجمال!

ويفسر د. ناجى[1] سر هارون الرشيد ويرجعه إلى شذوذ العبقرية فيقول:

«قلت إن هارون الرشيد كان رجلا من طراز خاص كان رجلا يبكى ويضحك، يقسو ويرحم، يغضب ويعفو، يقرب ويبعد، كان مزيجا من كل هذا، وهذا شذوذ العبقرى

١- نفس المرجع .

ويحسن أن نوضح ما نقول بالأمثلة فقد قرب البرامكة ثم غضب عليهم وأبادهم وحكايتهم مشهورة، وقرب الشاعر أبا العتاهية، واستنشده أشعار الزهد حتى بكى خوفا من عقاب الله. ثم سئم هذا الحديث عن الآخرة والثواب والعقاب واستنشده شعر الغزل، ثم قرب شاعراً آخر واستنشده شعراً في الغزل ولعله أبو نواس، ثم حبسه وحرم عليه النظر إلى النساء، فأنشد هذه الأبيات العجيبة من قضبان محبسه

إن الغـــــوانى تثـــــنت
ومـــلن ميل التهـــــــادى
يارب إن الغوانـــــــــى
أضللن عقل العبـــــــاد
إن شئت عذب عيــــونــى
أو شـــــئت فـــارحم فؤادى

«وبعد هذا وذاك هو رجل يعقد مجالس الغناء ويجيز الموصلى ويمنحه الهدايا، ويغاضبه أحيانا، فيلزم الموصلى بيته، ثم يرسل له من يستدعيه فيصالحه ثم يتساءل د. ابراهيم ناجى فى نهاية تحليله لمكانة المرأة فى حياة هارون الرشيد، ومكانتها فى عصره فيقول.[1] « وما نصيب المرأة فى كل هذا ؟ الثابت أن الجوارى كن يغنين فى حضرة الخليفة، وأن الحرائر كن يسمعن من وراء حجاب ومجالس الغناء يلزمها الشراب، وكان الخليفة يحاول أن «يعقم» المجلس من الشراب وأن يمنع السكر ! فكان المغنى يمتنع ويغضب لأنه لا سبيل للغناء عنده بدون السكر فكانوا يحضرون شرابا من عصير الفاكهة لا هو بالمسكر ولا هو بالمحرم فى رأيهم ، ولكنه يحدث فى الشاربين نشوة الخمر وما هو بالخمر .!

ولماذا كل هذا التحايل على الأمور ؟

نساء يسمعن من وراء حجاب ، شراب يخترعونه اختراعا ، شعراء يستنشدون الغزل..

١- الهلال ١٩٤٠.

السر فى كل هذا أن عصور الترف تبيح الحرية . والرجعية التى لم يمح أثرها بعد التيارات المتضاربة التى أشرت اليها سابقا - كانت تعمل عملها وتقيد الترف والحرية اللتين أباحهما ذلك العهد الزاهر الوضاء .

فإذا كانت هذه هى مكانة المرأة فى عصر الرشيد، فكيف كان وضع زوجاته ومشاعره نحو ابنائه ، يقول الأديب خليل شيبوب عن هذا الجانب من حياة الرشيد.[1]

كانت قصور الخلافة منسقة على الجانب الايمن من دجلة، واشهرها قصر الخلد الذى بناه ابو جعفر المنصور اضافة إلى قصر السلام حتى اصبحا كأنهما قصر واحد اختصه هارون الرشيد لنفسه فى الفترات التى كان يقضيها فى بغداد .

وقد تزوج الرشيد من اربع شرعيات، وحشد ممن ملكت يمينه عددا عديدا من الجوارى ترتفع كل واحدة منهن إلى درجة أم ولد كلما ولدت له ، وكان لكل زوجة جناح من القصر هو دائرتها.. وقد تختص بقصر مستقل تقيم فيه بين وصيفاتها وغلمائها تجرى عليها الارزاق والوظائف. ولها الضياع والقطائع . وعلى رأس كل دائرة أو قصر قيم من الخصيان هو حاجب او مولى يتخذ دواوين يشحنها بالحرس والخدم والغلمان .

«وليس من السهل أن نتصور الحياة المائجة التى تغلى بين اروقة القصر المزخرفة ومماشيه المفروشة ببسط فارس وارمينية ، واعمدته الرخامية، وحناياه المضلعة وزواياه المجزعة، ورواشنه وقبابه، وزجاجه الملون وما يفصل بينها من سدلات الديباج واستار الحرير، وما فى تلك الغرف والاروقة من شماعد النحاس الوهاج التى توقد فيها شموع المسك والعنبر ، وما تضم جدرانها من اسرة الذهب ومقاعد الفضة والابنوس ، يجللها ابريسم جرجان ، ودمقس اليمن ، وقباطى مصر، ومنسوجات دمشق وكشمير ، وما يفوح فيها من عطور الهند، وعود السند ، ويتردد فيها من الوصيفات والحواضن والأظئار عليهن الوشى الغالى ، والأثواب المزركشة ، والعصائب المذهبة ، وجواهر الصين، ولآلىء سرنديب .

١- الهلال ١٩٤٠ / ص ١١٧٠ .

ولسنا نحسن استحضار هذه الصورة إلا إذا استمتعنا باقاصيص الف ليلة وليلة ، هذا الكتاب الذى قيل فيه : أنه اصدق كتاب لتصوير حياة الشرق .. على أن ننتزع منه الخرافات والاخيلة المستحيلة .

ولكن كم تزوج هارون الرشيد من زوجات ، ومن هن الجوارى اللاتى عشقهن ؟

تزوج الرشيد من المهائر ستا ومات عن اربع هن زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن ابى جعفر المنصور بنت عمه ، وأم محمد حفيدة عيسى بن على عم المنصور ، وكان ابراهيم المهدى قد تزوجها ثم خلعت منه فتزوجها الرشيد، والعباسة ابنة سليمان بن أبى جعفر المنصور وبنت عم زبيدة وبنت عمه كذلك، والجرشية العثمانية ابنة عبد الله بن محمد التى ترجع بنسب أبيها إلى الخليفة عثمان بن عفان، وكانت جدة أبيها فاطمة بنت الحسين بن على بن أبى طالب، كما كان عم أبيها من أحفاد الأمام على ايضا وقد عد له الطبرى من أمهات الأولاد إحدى وعشرين اشهرهن مراجل أم المأمون، وماردة أم المعتصم، وقصف أم القاسم. وقد انجبن له جميعاً اثنى عشر ولدا وأربع عشر بنتا ذكر المؤرخ اسماءهم سوى من مات فى حياته.

وقد افتتن الرشيد من الجوارى بضياء وهيلانة الرومية، ولكن كل هؤلاء النسوة من مهائر وامهات أولاد وجوار لا تاريخ لهن لأنه ليس على الناس أن تخوض فى سير النساء، فلم تعرف إلا اسماؤهن ونسب بعضهن، إلا واحدة منهن تشابك اسمها باسم الرشيد وقاسمته التاريخ والخرافة لمكانها من قلبه ومنزلتها من الخلافة، هى زبيدة أم جعفر والدة محمد الأمين كان أسمها «أمة العزيز»، وكان جدها المنصور يرقصها وهى صغيرة.. شغف بها الرشيد كل الشغف منذ صغره وأعرس بها سنة ١٦٥ للهجرة أى قبل خلافته بخمس سنين وهو فى السادسة عشرة. وكان أخوه موسى الهادى أراد خلعه من ولاية العهد فاضطهده ومنع أن يسار أمامه بحرية حتى أجتنبه الناس، واضطهد إلى جانبه «يحيى بن خالد البرمكى الذى كان يدفعه عن خلع نفسه حتى حبسه الهادى وازداد هياجا على هارون وخافت أمه الخيرزان أن يبطش به فاسترخى

الرشيد ووهى عزمه وكاد يخلع نفسه، ومما قال (الطبرى ١٠ : ٣٥) «أليس يترك لى الهنئ والمرئ، فهما يسعاننى واعيش مع ابنة عمى» كأنه أراد أن يعتاض عن الخلافة بها لشدة محبته لها وكانت زبيدة ذات رأى وتدبير لا يرى الرشيد بدا من الأخذ بمشورتها. وحينما ولى الخلافة اطلق يدها فى خزائن الأموال فبنت القصور، وعمرت الضياع، وكان قصرها - قصر السلام- يتصل بقصر الخلد فزادت فيه وتفننت فى زخرفته حتى أصبح من أعظم القصور وافخمها. ولها الباع الطولى فى أعمال البر والإحسان، واطعام الجائع وإيواء ابن السبيل. وانفقت كثيرا على تعمير المساجد وتسهيل الحج إلى بيت الله، وكانت تحج مع الرشيد أو مع بعض أعمامها فتوزع الصدقات والأعطيات وتفرق المال على الحجاج وأهل الحجاز. وقد حفرت بالحجاز العين المعروفة بعين المشاش. ومهدت لها فى كل منخفض ومرتفع، وسهل ووعر، حتى اخرجتها على مسافة أميال من مكة. ومما يؤثر عنها أنها اصطنعت بساطا من الديباج جمع صورة كل حيوان على اختلاف أجناسها، وصورة كل طائر من الذهب واعينها من يواقيت وجواهر، وانفقت فى استصناعه الوف الالوف «كانت السيدة «زبيدة» هاشمية، لذلك جاء ابنها «الأمين» الخليفة العباسى الهاشمى الوحيد» وكان الرشيد لا يخالف لها أمرا ولا يعصى لها كلمة ولا يرد لها شفاعة. وإذا نابذها أو غاضبها لم يعد يصبر حتى يصافيها. وطالما انتفع الشعراء بمثل تلك المغاضبات. وقد تتدخل فيها علية بنت المهدى اخته. وفى بعض اخبارها أن الرشيد شغف بإحدى القيان فاصطبح وعرض جوارى قصره، فاحاط بها زهاء الفى جارية.. وبلغ ذلك أم جعفر فهرعت إلى علية فصنعت له لحنا ترده به إليها وجاءته به، وتبعتها أم جعفر ووراءها الفا جارية عليهن النفائس، وكان ذلك يوما من أيام الرشيد المشهودة [1] وكانت زبيدة تجيز كل شاعر يمدح ابنها الأمين، وكان الهاشميون يتقوون بها لدى الرشيد على منافسيهم من الاعاجم. وقد حملت بنفوذها الرشيد على عقد ولاية العهد لابنها الأمين فاستخلف وكان تدبيرها وبالا

١- الأغانى جـ / ص ٨٨ .

عليه ولقد قيل أن الرشيد كان يعهد إليها بخزائنه الخاصة إذا انصرف عن بغداد، بدليل أنها بعد موته انحدرت من الرقة فلقيها الأمين بالانبار في جمع من بغداد من الوجوه وكان معها خزائن الرشيد[1] فلا غرو بعد هذا كله إذا هي جزعت على موت الرشيد أشد الجزع وطارت نفسها شعاعا وأمرت أن ينظم لها شعر رقيق يلحن تلحينا حزينا ثم جمعت بنات الخلفاء وبنات هاشم لينحن عليه به

ويفسر خليل شيبوب بر الرشيد باولاده فيقول: [2] «كان الرشيد يحب أولاده حبا جما وطالما اعتز بهم وأظهرهم لجلسائه ليمتدحوهم بما يليق وبمنزلتهم منه وقد أدبهم أحسن تأديب فحشد لهم صفوة علماء عصره أمثال أبى محرز خلف الأحمر وتلميذه الكسائى، وقطرب النحوى، والحسن بن المسوروقد أجلس الأمين مجلس الأدب للتعليم وهو ابن أربع سنين وكان يجلس فيه ساعة ثم يقوم .

ومن قول الرشيد لخلف الأحمر فى تأديب الأمين :

« لا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه. وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباها فعليك بالشدة والغلظة» ولكن خلفا الأحمر يقول فى حديث له أنه كلما أراد مخاشنة الأمين أرسلت إليه زبيدة احدى وصيفاتها «تعزم عليه أن يكف عنه»..وقد ذكر التاريخ سيرا كثيرة عن تأديب الأمين والمأمون لمكانهما من ولاية العهد، ولكننا تعرف مثلا من بعض قصص الأغانى أن الحسن بن المسور كان مؤدب صالح بن الرشيد ولم يكن يعده للخلافة فلا شك إذن أن كل ولد الرشيد تأدبوا على أيدى جلة علماء ذلك العصر. ولكن مثلهم كمثل غيرهم ينجب منهم من ينجب ويخمل من يخمل، كل بحسب طبيعته واستعداده، كما رأينا فى «الأمين» الذى لم يحقق الرجاء الذى عقدوه عليه، ولكن من غير المعقول ما رووه عن المعتصم أنه كان أميا وكيف يكون كذلك وهو الذى كان يهتز لمدائح أبى تمام فيه فيما بعد؟ ولا نظن أن الرشيد يترك ولدا من أولاده بلا تأديب حتى يخرج أميا بل أنه كان يوليهم البلاد والجيوش ويدربهم على

١- ابن خلدون جـ ٣ / ص ٢٣ ٢- الهلال ١٩٤٠ .

الحكومة والسياسة، وإذا كان محالا أن يستخلفوا جميعا فليس بمحال أن يدبروا شؤون الدولة إلى جانب أخيهم الخليفة ويكونوا أقرب أعوانه. أما مما لا ريب فيه فهو أن الرشيد مثل جميع الآباء كان يؤثر أحد بنيه على الآخرين وكان هذا الأثير لديه عبد الله المأمون لما تبين فيه مخايل النجابة والذكاء وحصافة الرأى والجرأة وكان يقدمه منذ نعومة أظفاره وحدثوا أنه لما صار فى حد الرجال أمر الرشيد أن تعمل له خطبة يقوم بها يوم الجمعة. فلما خطب بها رقت قلوب الناس وأبكى من سمعه [1] ولو أطاع الرشيد هواه لقدمه فى ولاية العهد وقد هم أن يفعل ذلك ولكن الهاشميين وعلى رأسهم «زبيدة» أم جعفر والفضل بن الربيع خالفوا الرشيد فى تدبيره وهم يكرهون البرامكة الأعاجم، وأم المأمون أعجمية زعموا أن نسبها يتصل بالأكاسرة. فكيف يؤثر الرشيد هؤلاء الغرباء على سلالة جده العباس رضى الله عنه ونسبه من رسول الله (صلعم) وميراثه منه دون البنات، وما قاله الشعراء فى ذلك.. وطالما تذمر الرشيد من هذا الوضع ومن كلامه: «إن ملت إلى عبد الله أسخطت بنى هاشم، وأن أفردت محمدا بالأمر لم آمن من تخليطه على الرعية » (المسعودى) ولما جاءه الوفد من خراسان يحضونه على البيعة لأبنه محمد عزلهم الرشيد[2] وقال مرة للعباس بن محمد : «ياعم أن الشعراء قد أكثروا فى مدح الأمين بسببى وسبب أم جعفر ولم يقل أحد منهم فى المأمون شيئا» [3]

لذلك نستبعد عن الرشيد أن يأمر بجلد المأمون لأنه ارتفع بنظرة إلى إحدى جواريه كما وهم صاحب العقد الفريد[4] ولا نجارى المؤرخ العباسى فى صدقه حين يزعم أنه كان يتمنى على ابنه عيسى أن يكون جمال وجهه فى وجه المأمون[5] فيكسر بذلك قلب

١- الأغانى جـ ١٨ / ص ٨٢
٢- الأغانى جـ ١٧ / ص ٧٨
٣- الأغانى جـ ١٦ / ص ٣٨
٤- الأغانى جـ ٣ / ص ٢٩٦
٥- الأغانى جـ ١٩ / ص ٩٦

شاب ناضر هو ابنه على كل حال وأننا نخرج من هذا كله بأن الرشيد كان كبير الأعتزاز بأولاده كثير البر بهم والحدب عليهم ولعله كان يوجس خيفة كلما ذكر ما عامله به أخوه الهادى فأراد أن يقفل باب الفتنة فى وجوههم، فأدى به تخوفه إلى تلك الغلطة التاريخية الكبرى حين عقد المواثيق التى علقها فى الكعبة بولاية العهد لاولاده الأمين والمأمون والمؤتمن ففتح بيده باب الفتنة على مصراعيه حتى دارت الدائرة بمصرع الأمين ويؤكد خليل شيبوب أن أولاد الرشيد نشأوا نشأة عالية وتحابوا كما يتحاب الأخوة، ولاعبرة بما وقع من الفتنة بين الأمين والمأمون بل إن فى حوادث هذه الفتنة نفسها ما يؤيد ذلك : فأول ما فعله الأمين أنه القاسم المؤتمن على ما كان الرشيد ولاه من عمل الجزيرة وقنسرين والعواصم

وإذا أرسل على بن عيسى لمحاربة المأمون أرسل معه قيدا من فضة وأمره بالتلطف له والرفق به ولما قتل طاهر بن الحسين الأمين، وأرسل بالخبر إلى المأمون اشتد عليه ذلك وأضمر الشر لطاهر، وكان كلما ذكر أخاه بكى..

وقد أحب المأمون أخاه أبا عيسى حبا عظيما، ونوادره معه كثيرة، حتى قيل أنه أراد استخلافه. وكان أبو عيسى أجمل أولاد الخلفاء، ينظم الشعر ويحسن الغناء وله ألحان ذكرها صاحب الأغانى ولما مات وجد عليه المأمون وجدا شديدا وصلى عليه بنفسه حتى قال بعض من حضر يصف المأمون: «ما رأيت مصابا حزينا قط أجمل مرأى فى مصيبة ولا أحرق وجدا من رجل صامت تجرى دموعه على خديه من غير كلح ولا استنثار...» (أغانى ٩ : ٩٨)

وولى المأمون أخاه القاسم المؤتمن جرجان حين لحق به أبان الفتنة سنة ١٩٧. وولى أخاه صالحا البصرة سنة ٢٠٥. وولى المعتصم الشام ومصر سنة ٢١٢. واستخلف المعتصم متخطيا به ابنه العباس. على أنه لما بلغ أن أخاه أبا أحمد بن الرشيد اشترى «فائزا» غلام محمد بن راشد الخناق بثلاثمائة ألف درهم أمر أن يضرب ابن راشد بالسياط وارتجع منه نصف المال وحجر على أخيه أبى أحمد ورد أمر ماله إلى مخلد

بن أيان (أغانى ١٧ : ١٢٧) ولو كان الرشيد حيا لما فعل غير ذلك ،كان الرشيد قد زوج حمدونة من جعفر، وبنته فاطمة من اسماعيل ولدى أخيه موسى الهادى لوعد وعده به.

ذلكم أمير المؤمنين هارون الرشيد بين زوجاته وأولاده .

وعلينا أن نتذكر أن حياة الأسرة لم تكن معروفة فى عصره على الوضع الذى تألفه اليوم، إذ لم تكن الزوجة الشرعية تستنكف اهداء زوجها جارية وسيمة أو قنية بارعة الفن والجمال ولا تعد هذا خرقا فى علاقتها به. ولا تنسى أن الرشيد كان يحج عاما ويغزو عاما، ويصلى كل يوم مائة ركعة، ويجلس للمظالم، ويتتبع الدولة الخارجية والداخلية عن كثب ، ويسهر على راحة رعاياه أطول السهر، ومع ذلك فقد كان يفرغ للهو ومجالس الأنس. ويتفرغ إلى زوجاته خاصة زبيدة، ويكن لهن الحب والاحترام ، ويعمل على تنشئة أولاده بنفسه أحسن ما يعمله رب الأسرة النبيل. وقد دفعه حبه هذا إلى اشراك أهل بيته فى سياسته. فإذا كان قد أخطأه التوفيق فلا أقل من أن يحفظ له التاريخ شهادة الحق فيهم ، وهى أنه كان مثالا عاليا لمحبة الزوجة والبنين .

هذه هى المرأة فى حياة هارون الرشيد أماً وزوجة ونديمة ومحظية أما هارون الرشيد الأب فكان غاية فى الحب لهم، والعناية بتربيتهم وتنشئتهم التنشئة السليمة التى تكفل لهم مستقبلا يليق بكانتهم المنتظرة، فلم تلهه أبهه الملك ولا حبه لمجالس الأنس والطرب عن رسالته كأب محب لأبنائه!

الفصل السابع

إيمـان الرشـيد

وبعد هذه القصص والحكايات المثيرة، كيف صوروا شخصية هارون الرشيد .

لقد دافع عنه معظم مؤرخي الأدب والتاريخ وفسروا أسباب شهرته كشخصية انبساطية مرحة تحب الملذات وأساليب العيش والمرح [1] والليالى الملاح ، فيرى الأديب العربى الكبير محمد كرد على أن هارون الرشيد صوروه شريبا خميرا لا يصحو ليله ونهاره ، وزير نساء عابثا لاهيا لا تهمه دنياه ولا آخرته، والله يعلم أنه الخليفة المظلوم، وما كان الرشيد بالخليفة المتزمت على مثال انسان القرن الاول والثانى . كان يأخذ من الحياتين مالا يعبث بأصل من أصول الشرع، ويأتى رخص الدين وعزائمه ، كان متدينا ممدنا فى آن واحد .

كان يحب المرح ، ومرحه لا تبذل فيه، وما كان فى شيء من المحرم ولا من المنكر. وكيف ، لعمر الحق بلغت بهم السلاطة أن يصموا عظيما كهذا بما وسموه به ؟ وكان كما أجمع مدونو سيرته يغزو سنة ويحج أخرى، ويصلى كل يوم مائة ركعة ، ويتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم بعد زكاته ، وإذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم ، فإذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الفاخرة [2]

وإذا كان الرشيد يلهو ويطرب فى الأحايين، وقد يجتمع الى المسمعات والمسمعين ، والعازفين والضاربين ، فليس معنى ذلك أن هذا كان دأبه وأنه يفعل المحرمات ولا يبالى . لا جرم أنه كان مجتهدا ، وأن رأيه فى الطرب غير رأى المتعصبين والناسكين فى عصره ، وقد شهد له بالتقوى جمهور العلماء الذين كانوا يختلفون الى مجلسه ، ويرقبون سيرته عن أمم ، وما كان هؤلاء الأئمة ممن يصانع عن دينه ويشهد الزور حسبة وهم المأمونون الثقات أعجبوا به حيا وميتا ، وشهادة واحد منهم تعدل ألف شهادة صدرت عن الفساق والمجان، وما أحسن ما قاله فيه ابو المعالى الكلابى :

فمـــن يطلـــب لقـــاءك أو يـــرده

١- مجلة الهلال ١٩٤٠ / ليس بالمستهتر الماجن / محمد كرد على .

٢- الكامل لابن الاثير .

فبالحـــرمين أو أقصـــى الثغـــور

ففـــى ارض العـــدو على طمـــر

وفى ارض البنيـــة[1] فـــوق طـــور

وما جـــاز الثغـور ســواك خلق

من المســـتخلــفين على الامور

ثم يستطرد محمد كرد علي فى دفاعه عن الرشيد فيقول :

«ليس الرشيد بالرجل الذى صوروه مع أبى نواس الشاعر، وماكان أبو نواس هذا كما صوروه أيضا به من الفحش والدعارة .

الرشيد كان رقيق العاطفة نبيلا فى حبه ، ولا تقدح فى عدالته أبيات ثلاثة عزيت اليه وهى» :

ملك الثــلاث الغانيـــات عنـــانى

وحللن من قلبـــى بكل مكـــــان

ما لى تطاوعنى البريـــــة كلها

وأطيعـــهن وهن فى عصيانــــى

ما ذاك إلا أن سلطان الهـــوى

وبه قـــوين أعز من سلطـــانى

«والحب الشريف كان منذ الأزل مثال كمال النفس وجمال المذهب، إن من حاولوا تشويه سيرة الرشيد واستحلوا بالتقول عليه الخروج عن منطق الاشياء، قد وضعوا أيضاً فى خيرة رجال بنى امية أخباراً أوهى من خيوط العناكب، وما الحيلة فيمن سولت لهم أنفسهم أن يضعوا الاخبار الكاذبة على الرسول، ويعزوا اليه ما هو ظاهر البطلان، تأييداً لدعوتهم ، والسياسة ما زالت تسود الابيض وتبيض الأسود .

هذه الطائفة من الناس هى التى كانت تتخذ من كل ما يأتيه الخليفة العباسى

١- البنية كغنية : الكعبة ، والطمر كفلز : الفرس الجدام .

لصيانة ملكه من الزوال ذريعة الى النيل منه، تفسره بغير ما يريد به وتحمله على غير محمله على نحو ما كان منهم يوم قتل بنى يرمك لأنهم كانوا يأتمرون عليه وعلي سلطانه ، فقال أعداؤه انه قتلهم لأن أحدهم تزوج العباسه أخته على صورة لم تعجبه ، والمعقول أن يقتل من لم ترضه فعلته لا أن يقتل أسرة بأسرها ، ولم ينج من سيفه وبطشه إلا واحد فقط لم يدخل فيما دخل فيه أهله .

قد يستجيز بعض أرباب الدول الكذب على الخصم السياسى ، ولكن الكذب على هذه الصورة محرم فى نظر كل دين وعقل .

وفى مواجهة كل قصص وحكايات المجون، والانغماس فى الملذات نجد قصصا أخرى تؤكد عمق إيمانه ، وواسع رحمته ، فيرى محمد أحمد جاد المولى[1] أن هارون الرشيد قد خالط الإيمان قلبه واستولى على لبه ، فأصبح متمكنا من أعماله وتصرفاته يسالم من يشاء ، ويعادى من يشاء بقلب ثابت وجنان كالعود الراسخ .

ولذلك نستطيع بحق ان نقول : إن الرشيد اضخم الخلفاء المسلمين اسما وأبعدهم صيتا وأشدهم فى الخيال تأثيرا ، فأنت لا تستطيع أن تسمع اسم هارون الرشيد حتى يحدث فى نفسك صورا خيالية مختلفة النوع، ولكنها فى القوة، فهو ينشىء فى نفسك صورة الخليفة المترف المسرف فى الترف، ، وينشىء فى نفسك حينا آخر صورة الخليفة القوى الذى بسط سلطان الخلافة على اطراف الارض ، ثم ينشىء فى نفسك صورة الخليفة العالم الاديب، الفقيه بألوان العلم والدين والادب، المشجع للفقهاء والعلماء والشعراء والكتاب تشجيعا أصبح فيه مثلا لمن جاء بعده، وأخيرا ينشىء فى نفسك صورة الخليفة الورع الزاهد البالغ أعلى المراتب نسكا وطاعة وتبتلاً لله.

«وحسبنا أن نذكر ما كان له من قوة إيمان وثبات يقين لا تزعزعه الحوادث ولا تفل من عزمه الكوارث: فقد اشتهر زمن الرشيد بخوارج أولى بأس شديد بعد أن كانت نيرانهم قد خبت مدة طويلة، فخرج الصحيح الخارجى بالجزيرة (وأرسل إليه من أخمد

١- الهلال / ايمان الرشيد / ١٩٤٠ .

ناره)، وكان أشد الخوارج بأسا الوليد بن طريف التغلبى بالجزيرة، دخل أرمينية وسار إلى أذربيجان ثم عبر إلى غرب دجلة، فسير إليه الرشيد يزيد بن مزيد زائدة الشيبانى وما زال به حتى أخذ رأسه وقدمه إلى الرشيد ظهر الخوارج فى نواح كثيرة، ولكن لم تقم لهم قائمة أمام حكمة الرشيد وقوة يقينه وشدة إيمانه، فقد أذلهم وأزالهم

ولا تنس الفتن التى انتشرت بمصر والموصل وغيرهما، وقد أمر الرشيد باخراج الطالبيين من بغداد إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث كانوا شغل بنى العباس، لأنهم كانوا متطلعين إلى نيل الخلافة كما كانت شيعتهم تتحين الفرصة لاقامة دولتهم : فقد ظهر منهم يحيى بن عبد الله الحسن بالديلم واشتدت جموعه، وأتاه الناس من الأمصار فندب إليه الرشيد الفضل بن يحيى بن خالد فما زال به الفضل إلى أن قدم به إلى بغداد وأمر الرشيد بحبسه فمات فى الحبس ولننتقل إلى من نقضوا العهد وكيف تمكن الإيمان من قلبه أنه لابد قاهرهم وهازمهم: ففى سنة سبع وثمانين ومائة نقض ملك الروم الهدنة التى كانت بين المسلمين وبين الملكة (رينى) ملكة الروم، فكتب الرشيد كتابا يقول فيه: «أما بعد فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها أحمالا لضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابى فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وإلا فالسيف بينى وبينك» فلما قرأ الرشيد كتابه كتب إليه: «قرأت كتابك والجواب ما ترى لا ما تسمع» ولم يتزحزح حتى بلغ مراده منه أما صولة البرامكة وبسط سلطانهم وقوة شوكتهم على جميع مرافق الدولة الزمن المديد والمدى البعيد وصبره على ذلك فإنه دليل واضح وبرهان ساطع على قوة إيمانه وتمسكه بقوله تعالى: (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) ذلك بأنه قد عظم فى نظر الناس مالهم من الآثار وبعد الصيت، وكثر ما إختصوا به وعمروه من مراتب الدولة وخططها، وما اجتازوه عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم وأموال حتى اقتصرت عليهم الآمال وتخطت بهم من أقصى التخوم والممالك هدايا الملوك وتحف الأمراء كل هذا والرشيد صابر لا ضجر، ذو

يقين ثابت وإيمان صادق، إلى أن وقعت لهم النكبة المشهورة التى لهم فيها بمن قبلهم أسوة ولمن بعدهم عبرة : (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) لهذا لم يكن من العجيب أن مؤرخى العرب يجمعون على أن الرشيد كان مع استمتاعه بمرافه الحياة ومناعمها - ورعا متعبدا متأثرا بالمواعظ .

أما عن تعبد الرشيد وتصدقه فيقول محمد جاد المولى: (١)

فأما تعبده فقد ذكر المؤرخون أنه كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا إلا أن تعرض له علة.. وكان يتصدق من صلب ماله فى كل يوم بألف درهم بعد زكاته، وكان إذا حج حج معه من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج ثلثمائة بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة، وكان يميل إلى أهل الفقه، ويكره المراء فى الدين ويقول : هو شئ لا نتيجة له وبالأحرى لا ثواب فيه وأما خشيته لله وأدبه فقد ذكر بعض أصحابه أنه خرج معه يوما إلى الصيد فعرض له رجل من النساك فقال : «ياهرون اتق الله» ووعظه وأغلظ فى الموعظة. فقال الرشيد لاحد أتباعه : «خذ هذا الرجل إليك حتى أنصرف» فلما رجع دعا بغدائه. ثم أمر أن يطعم الرجل من خاص طعامه فلما أكل وشرب دعا به فقال:

- يا هذا أنصفنى فى المخاطبة والمساءلة

قال : ذلك أقل مما يجب لك

قال : فأخبرنى : أشر وأخبث أنا أم فرعون؟

قال : بل فرعون الذى قال : أنا ربكم الأعلى

قال : صدقت. فاخبرنى، فمن خير، أنت أم موسى ابن عمران

قال : موسى كليم الله وصفيه

قال : صدقت، أفما تعلم أنه لما بعثه الله وأخاه إلى فرعون قال لهما : «فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى»، هذا وهو فى عتوه وجبروته على ما قد علمت، وأنت جئتنى

١- الهلال / ايمان الرشيد / ١٩٤٠ .

وأنا بهذه الحالة التى تعلم: أؤدى أكثر فرائض الله على، ولا أعبد أحداً سواه، أقف عند أكبر حدوده وأمره ونهيه فوعظتنى بأغلظ الألفاظ وأشنعها وأخشن الكلام وأفظعه، فلا بأدب الله تأدبت ولا بأخلاق الصالحين أخذت، فما كان يؤمنك أن أسطو بك فأنت أنت قد عرضت نفسك لما كنت عنه غنياً؟

قال الناسك: أخطأت يا أمير المؤمنين، وأنا استغفرك

قال : قد غفر الله لك. وأمر له بعشرين ألف درهم. فأبى أن يأخذها وقال: «لا حاجة لى فى المال، أنا رجل سائح» فقال هرثمة: «ترد على أمير المؤمنين يا جاهل صلته!» فقال الرشيد : « أمسك عنه» . ثم قال له : «لم نعطك هذا المال لحاجتك إليه، ولكن من عادتنا ألا يخاطب الخليفة أحد ليس من أوليائه ولا أعدائه إلا وصله ومنحه، فاقبل من صلتنا ما شئت وضعها حيث أحببت» فأخذ الرجل من المال ألفى درهم وفرقهاوفى سنة ١٨٧ ه غضب على عبد الملك بن صالح بن على ابن عبد الله بن عباس. وسبب ذلك أنه كان له ولد اسمه عبد الرحمن وبه كان يكنى، وقد سعى بأبيه هو وقمامة كاتب أبيه، وقال للرشيد: أنه يطلب الخلافة ويطمع فيها. فأخذه وحبسه عند الفضل بن الربيع، وأحضره يوما حين أظهر السخط عليه وقال له : «كفراً بالنعمة وجحودا لجليل المنة والتكرمة؟» فقال : «يا أمير المؤمنين، لقد بؤت إذن بالندم، وتعرضت لاستحلال النقم، وما ذاك إلا بغى حاسد، أنك يا أمير المؤمنين خليفة رسول الله على أمته وأمينه على عترته، لك عليها فرض الطاعة وأداء النصيحة، ولها عليك العدل فى حكمها والغفران لذنوبها، والتثبت فى حادثها» فقال الرشيد : «أتضع من لسانك وترفع من جنانك؟ هذا كاتبك قمامة يخبر بغلك وفساد نيتك فاسمع كلامه»فأحضر قمامة فقال له الرشيد: «تكلم غير هائب ولا خائف» فقال : «أقول أنه عازم على الغدر بك والخلاف عليك» فقال عبد الملك : «كيف لا يكذب على من خلفى من يبهتنى فى وجهى؟ فقال الرشيد : « فهذا ابنك عبد الرحمن يخبرنى بعتوك وفساد نيتك. ولو أردت أن أحتج عليك لم أجد أعدل من هذين الأثنين لك، فلم تدفعهما عنك» فقال عبد الملك: « هو مأمور أو عاق مجبور:

فان كان مأمورا فمعذور، وإن كان عاقا ففاجر كفور. أخبر الله عز وجل بعدوانه وحذر منه بقوله: أن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم» فنهض الرشيد وهو يقول : «ما أمرك إلا وقد وضح، ولكنى لا أعجل حتى أعلم الذى يرضى الله عز وجل فيك فإنه الحكم بينى وبينك» فقال عبد الملك: «رضيت بالله حكما وبأمير المؤمنين حاكما» ثم أمر الرشيد الفضل بن الربيع أن ينظر ما يحتاج فيوظفه له. ففعل

قال الطبرى: أن بعض الحجبة حدثه: أن الرشيد لما حج دخل الكعبة وقام على أصابعه وقال: «يا من يملك حوائج السائلين ويعلم ضمير الصامتين، فإن لكل مسألة منك ردا حاضرا وجوابا عتيدا، ولكل صامت منك علما محيطا ناطقا بمواعيدك الصادقة وأياديك الفاضلة ورحمتك الواسعة، صل على محمد وعلى آل محمد، واغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا، يا من لا تضره الذنوب ولا تخفى عليه العيوب، ولا تنقصه مغفرة الخطايا. يا من خشعت له الأصوات بألوان اللغات، يسألونك الحاجات، إن من حاجتى إليك أن تغفر لى إذا توفيتنى وصرت فى لحدى وتفرق عنى أهلى وولدى، اللهم لك الحمد حمدا يفضل على كل حمد كفضلك على جميع الخلق، اللهم صل على محمد صلاة تكون له رضا، وصل على محمد صلاة تكون له حرزا، واجزه عنا خير الجزاء فى الآخرة والأولى»

الفصل الثامن

الحياة الفكرية فى عصره

يرسم المؤرخون صورة زاهية لبغداد فى عصر الرشيد، ولكن أختلفوا على من بناها، فبعضهم يذكر أن أبو جعفر المنصور «ثانى خلفاء بنى العباسى هو الذى أنشأها فسواها وبناها فأحسن بناءها، ويرى آخرون أن بغداد أقدم من العباسيين وأنها كانت موجودة ومعروفة قبلهم، وكل ما فعله المنصور هو أنه جدد بناءها ووسع رقعتها.

وقد أسرف مؤرخو الدولة العباسية فى وصف عمران بغداد وبالغوا فى أحصاء دورها وحماماتها ومساجدها وملاهيها وأنت إذا رجعت إلى الأغانى أو غيره من كتب الأدب الباقية من تراث ذلك العصر وجدت معينا لا ينضب ومادة لا تنفد، تستعين بها فى دراسة حالة بغداد وعمرانها، ولا سيما اللهو والمجون، وقد بدأ يستبحر فى أوائل عهد الرشيد. وكانت الدولة يومئذ فى عنفوان مجدها وأوج عظمتها.

ولا يسع من يقرأ ما كتبه الاصفهانى وغيره إلا الحكم بأن ما كان يجرى بين جدران مدينة بغداد فى ذلك العصر لا يكاد يختلف كثيرا عما يجرى بين أسوار باريس ولندن وبرلين، فقد كثر الاقبال على اللهو والشراب والترف، وهذا كله من مستلزمات الحضارة ومن لوازمها فى كل آن وزمان ولقد بدأ عهد انحطاط بغداد برحيل المعتصم عنها إلى سامراء مع خدمه وحشمه وجنده وأتباعه. ولوجود قصر الملك فى العاصمة تأثير لا ينكر. ويمكن القول بأن عهدها الذهبى انقضى بانقضاء عهد المأمون.

وكانت الفتنة التى نشبت بين الأخوين نذير الأنحطاط والفشل، ولئن ذهب بعض المؤرخين إلى اعتبار عصر المأمون العصر الذهبى لهذه الدولة فأنا نسلم بذلك إذا أريد به جانب العلم أو النهضة العلمية. أما من الناحيتين السياسية والقومية فليس الأمر كذلك، وربما كان إقبال المأمون على العلوم واشتغاله بها فى مقدمة العوامل التى صرفته عن شئون الدولة الخطيرة.

وانحط عمران بغداد وتقهقر تبعا لتقهقر الدولة وانحطاطها، فكلاهما لازم وملزوم واستمر ذلك حتى جاء التتر فى أواسط القرن السابع الهجرى وكانت قد بلغت دور

الهرم والشيخوخة، فدكوها دكا، وأراقوا تلك العبابة التى كانت فى كأسها وتركوها قاعا صفصفا ولكن

كيف كانت الحياة الفكرية فى عصر هارون الرشيد؟

وما هى نوعية الحضارة الإسلامية فى عهده؟

ولماذا اكتسب دون غيره من الخلفاء والحكام المسلمين تلك الشهرة المدوية فى المشرق والمغرب؟

هل هى «ألف ليلة وليلة» التى ملأت باسمه الأسماع فى المشرق والمغرب هى السبب الوحيد، أم أن هناك أسبابا أخرى موضوعية وراء ذلك؟!

ثم ماهى معالم شخصيته الثقافية والفكرية؟ وهل اقتصر ثقافته على علوم العربية وآدابها فقط؟ أم اتسعت لتشمل ثقافات أخرى؟

يرى مؤرخوه أن ثقافة الرشيد(١) كانت ثقافة عربية واسعة، فقد علمه الأدب المفضل الضبى والنحو الكسائى، وتلقى على الأصمعى العديد من الطرف الأدبية والملح العربية الباسمة، وكان نديمه فى الغناء اسحاق الموصلى، وتدلنا الروايات التى تتناول مناقشاته الممتدة للعلماء والأدباء على بحر واسع فى العلم والأدب، وقد روى عنه أنه كان ينقد الشعراء فى أشعارهم، وينتقد المغنين فى غنائهم، ويورد لهم مزاياهم ومواضع النقد فى كل ما يسمع ويرى، وكان من نتاج ذلك كله ما جمعه أبو الفرج الأصفهانى من أصوات ممتازة أنشأ عليها كتابه الشهير «الأغانى» ويورد أحمد أمين وصيته المشهورة التى تقدم بها إلى الأحمر معلم ولده محمد الأمين ليدلك على عمق ثقافة الرشيد، ويؤكد أن ثقافته لم تقتصر على الثقافة العربية فقط، فإلى جانب(٢) ذلك كان فى عهده اختلاط الثقافات كأنها جداول صغيرة تكون منها نهر كبير، فأولا كان من هذه الثقافات، الثقافة الفارسية وهى التى عظمت الدولة العباسية، مما ألفه عبد الله بن المقفع وأمثاله،

١- أحمد أمين / هارون الرشيد / كتاب الهلال ١٩٥١ / ص ٨٩ .

٢- المرجع السابق ص ٩١ .

وقد كسبت الثقافة الإسلامية العباسية من الفرس أشياء كثيرة، منها ألفاظ المأكولات الفارسية والنباتات الفارسية وضروب الملابس والأثاث والرياش.

ثانيا: نقلوا كثيرا من كتب الأدب الفارسية الأصل، وكثيرا من القصص الفارسية، ويحكون أن كتاب ألف ليلة وليلة أصله فارسي، وقد ترجم ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة عن الفارسية، كما ترجموا عن الفارسية كتاب «زرادشت» المسمى « أفستا » ترجموه هو وما به من شروح، كما ترجم ابن سهل كتاب « جاويدان صرى» عن الفارسية

كذلك انتشرت الثقافة الهندية بدخول كلمات من الأصل الهندى إلى اللغة العربية، وهنالك ثقافة يونانية دخلت للغة العربية منها ألفاظ كثيرة، خاصة فى الطب والفلسفة والمنطق وبجانب الثقافات العربية والفارسية واليونانية كانت الثقافة الرومانية التى كان من أسباب وجودها الألفاظ التى التقطتها من الجوارى الرومانيات ومن الرومانيين الأسرى أثناء حروب المسلمين معهم، وكان مما عنى الرشيد به فى عهده، الطب والتنجيم، فكانت من الوظائف الرسمية، فكان لكل خليفة طبيب خاص ومنجم خاص به ولتسرب هذه الثقافات والعناصر المختلفة إلى المسلمين ظهر أثر ذلك واضح فى تحول العلوم من أشكالها البسيطة الدائمة إلى قواعد علمية، ويتسابق العلماء فى تأسيس العلوم كل يريد أن يؤسس علما فتشارك فى هذا العمل علماء من العرب كالخليل بن أحمد الفراهيدى، وعلماء من الفرس كسيبو يه وأبى حنيفة، ومن الهنود كابن الأعرابى، ويتحول الفقه من مذهب من جمع للحديث واستنتاج منه إلى مذهب قياس منطقى كالذى يصنعه أبو ضيفه، ثم تقعد أصول اللغة وقواعدها فى معاجم تشمل موضوعات كالخيل والأبل، ثم يصنع الخليل بن أحمد كتاب «العين» كأساس للمعاجم اللغوية، بالإضافة إلى ازدهار الشعر والنثر والنقد الفطرى الذى يعتمد على الذوق والأحساس وعلوم اللغة والأدب يضاف إلى ذلك اختلاف المذاهب والنحل وصبغتها بالشكل العلمى، حتى أن المذاهب التى كانت سياسية كالمرجئة والخوارج وأهل السنة والشيعة، تحولت إلى مذاهب دينية علمية تعلل تعليلا علميا وتحلل تحليلا فلسفيا.

ولكن كيف كانت معالم عصر الرشيد ؟

يرى العقاد[1] أن عصر الرشيد كان هو العصر الذى انتقل فيه المسلون من حضارة عربية محضة إلى حضارة شعوبية أو عالمية على قدر ما يتصل بالمسلمين من أمم العالم

وجاء هذا الأنتقال من جراء تغير أحوال المعيشة ولكن معالم تلك الحياة الفكرية والثقافية فى عصر الرشيد، تتضح أكثر كلما فصلنا مختلف الجوانب لهذا العصر الزاخر الثرى حيث تتأثر الحياة الفكرية بأحوال المعيشة كما تتأثر بالعلوم والدراسات وربما كانت الأحوال المعيشية أعم أثراً فى تحويل الأفكار والخواطر النفسية من دراسة الكتب ومذاكرة العلوم. لأن الدراسة مقصورة على الخاصة قلما تتجاوزهم إلى الدهماء وسائر البيئات. أما أحوال المعيشة فتشمل كل طبقة وكل بيئة ممن يدرسون ويفكرون أو ممن يتلقون الأفكار بالتلقين والإيحاء.

فالرجل الذى يعيش فى حاضرة يرى فيها الناس من كل جنس ويشهد فيها اختلاف الأزياء والعادات من أبناء وطنه وأبناء الأوطان الأخرى، ويتعود أن يجعل باله لمختلف المظاهر والإشارات ومختلف العقائد والآداب، قد يبلغ من تفتح الذهن مرتبة لا يبلغها الرجل الذى يفوقه علما ودراسة ولكنه محصور فى بيئة ضيقة لا تعرف غير عاداتها ولا تألف غير أنماطها ومشاربها ولا تنظر إلى الدنيا إلا من ناحية واحدة قلما تتبدل على توالى السنين وقد كانت أحوال المعيشة ظاهرة الأثر فى الحياة الفكرية على عهد الرشيد، تمهيدا لعهد ابنه المأمون الذى كانت له حياة فكرية قوامها الدرس والترجمة والبحث على نحو جديد فخلاصة ما يقال فى عهد الرشيد أنه هو العهد الذى انتقل فيه المسلمون من حضارة عربية محضة إلى حضارة عالمية ويضيف العقاد فى تحديد معالم الحياة الفكرية فى عصر الرشيد فيقول :» [2] .

«وجد المسلمون أنفسهم فى دولة ينتظم فيها أو يحيط بها أجيال من الفرس والترك

١- الهلال / اغسطس ١٩٤٠ / ص ١٠٩ .

٢- المرجع السابق .

والروم والفرنجة وأهل الهند والصين، وكان قيام الدولة الأموية بالاندلس باعثا الى عناية المسلمين بأوربا وعناية أوربا بالمسلمين . فأصبح انحصار التفكير العربى فى الحدود العربية من أصعب الأمور ، وانفسح أفق النظر بالمراس والمشاهدة والتجربة قبل انفساحه بترجمة الفلسفة واستيعاب كتب اليونان والفرس و (الاعاجم) على الاجمال .

وساعد على توسيع النطاق العربى أن العباسيين اعتمدوا على الفرس والموالى فى بلوغ مابلغوه من السلطان فحسن لديهم ان يجعلوا الاسرة الاسلامية مقدمة على الاسرة العربية، ورجعوا بالتبديل الجديد ترحيب الراغب فيه المطمئن اليه .

أما الحياة الفكرية يومئذ من حيث الدرس والاطلاع فقد كانت أشبه شىء بالتاجر الذى يجمع ثروته الخالصة قبل أن يساهم بها مع غيره من الشركاء .

فكانت الحياة الدراسية إلى عهد الرشيد مقصورة على تحصيل المعارف العربية حيث وجدت فى عالم الدين أو فى عالم الأدب أو فى عالم اللغة ، إلا ما ندر من المترجمات والمنقولات فمعظم الباحثين والمفكرين إلى ذلك العهد كانوا من فقهاء الدين أو مؤرخى الغزوات أو جامعى القصائد والروايات أو مصححى اللغة وقواعد النحو والصرف والاشتقاق . كأنهم كانوا يسجلون حساب الثروة العربية قبل أن يختلط بغيره من حساب الثروات التى أوشكت أن تشاركها فى مجال الثقافة والتفكير .

وينبغى أن نذكر أن العباسيين ولا سيما فى صدر دولتهم كانوا يعتزون بقرابتهم من النبى عليه السلام ويجعلون هذه القرابة شفيعاً لهم وبرهاناً على حقهم فى الخلافة دون الامويين الذين غصبوهم ذلك الحق بعد الخلفاء الراشدين .

فهم على رغبتهم فى تشجيع الشعوب وتوسيع الحضارة لا يستطيعون أن ينسوا التراث العربى نسبة واحدة ولا أن يعودوا الناس الاستخفاف به والإعراض عنه كل الاعراض فحرصوا على ذلك التراث فى الادب والدين على السواء، ولم يترخصوا فى القدوة العربية حتى مع الشعراء الماضين الذين كانوا يتحللون من كل قيد ويجترئون على كل قدوة. وحسبك من ذلك قول أبى نواس وكان نزاعا الى الابتداع فى مطالع

القصائد خلافا للشعراء السابقين :

أعـر شـــعرك الاطــلال والمنزل القــفرا
فقد طالما ازرى به نعتــك الخمـــــــرا
دعانى إلى نـعت الطلـــــول مســـلط
تضيـــــق ذراعـــى أن أرد له أمـــــرا
فســـــــمعا أمير المؤمنين وطـــــــاعة
وأن كنـــت قد جشـــمتنـى مركبا وعرا

وهـذا مثل لما كان يرتضيه الرشيد من الحياة الفكرية عندما تصل إلى التعبير المقروء، وإن كانت أحوال معيشتهم قد خطت وراء ذلك خطوات .

ولعلنا لا نجد مثالا للحياة الفكرية فى عهد الرشيد أصدق من مثال الرشيد نفسه فيما كان يتعلمه وما كان يتخلق به ويجرى عليه من سنن المعيشة .

فقد كان أديبا متفقها معنيا بأخبار العرب قائما بالفرائض الدينية موقراً لشعائر الصلاة والحج خاصة أيما توقير، وكان يبيح اللهو ولكنه لا يشهد مجالسه مع اللاعبين، ويميل الى الفكاهة ولكنه لا يقبل من ندمائه ان يتجاوزوا بها حدودها فيما يمس الفرائض والعبادات. كان أبو مريم المدنى من ندمائه الأثيرين عنده، وكان يسكنه قصره ويخلطه بحاشيته ويقبل منه مالا يقبله من سائر جلسائه. فقام إليه يوماً وقد طلع الفجر فألفاه نائماً فكشف اللحاف عنه وقال له : «كيف أصبحت» ؟ فقال أبو مريم : «يا هذا أنا ما أصبحت بعد ! اذهب الى عملك.. » وتأهب الرشيد للصلاة فجاء غلامه فقال : «أمير المؤمنين قد تأهب للصلاة» وألح الغلام فى إيقاظ النديم، فقام ومضى نحو الرشيد فاذا هو يقرأ «وما لى لا أعبد الذى فطرنى».. فقال أبو مريم : لا أدرى والله ! فلم يتمالك الرشيد أن ضحك فى صلاته ثم التفت الى نديمه كالمغضب قائلا : «يا ابن أبى مريم فى الصلاة أيضاً!» قال : «يا هذا وما صنعت ؟» قال : «قطعت على صلاتى»، قال : «والله ما فعلت ، انما سمعت منك كلاماً غمنى حين سألت : وما لى لا أعبد الذى

فطرنى فقلت لا أدرى والله» فعاود ضحكه وقال :

«إياك والقرآن والدين . ولك ما شئت بعدهما » .

فهذا الخليفة السمح الذى كان يجلس للمنادمة والسماع بل يلم بما استطاع الالمام به من أصوله وموازينه كان مع هذا لا ينسى أن يدعو ندماءه إلى الصلاة فى أوانها ، وأن يذكرهم واجب التوقير للقرآن والدين، ثم يتعرضوا لما شاءوا بالفكاهة والمزاح .

ومما لا جدال فيه أنه لم يبلغ من العلم والفلسفة مبلغ ابنه المأمون، ولكنهما مع هذا كانا مثلين متكافئين للثقافة الاسلامية قبل الانتقال وبعد الانتقال .

فالرشيد كان خير مثل للثقافة العربية الخالصة ، والمأمون كان خير مثل للثقافة العربية التى أمتزجت بثقافات الأمم الإسلامية وغير الإسلامية ، وكلاهما فرد لا نظير له فى مناقبه بين بنى العباس ومن سبقهم أو تلاهم من خلفاء الدول العربية فى المشرق.

وقد عجب كثير من المؤرخين لماذا أوتى الرشيد دون غيره ذلك الحظ الوافر من «الشهرة الشعبية» فى المشرق والمغرب وبين قراء التاريخ ومن لا يقرأون صفحة واحدة من الكتب التاريخية .

فهارون الرشيد علم على سلطان الدولة الاسلامية حيثما سمع بها السامعون وتحدث بها المتحدثون وهو فى هذا المعنى من طراز رمسيس فى الدولة المصرية القديمة، ومن طراز لويس الرابع عشر فى دولة فرنسا الحديثة ، فكلهم قد أصبح نموذجا للملك على ألسنة الخاصة والعامة بغير اسقصاء او توسع كبير فى مراجعة التاريخ .

والرشيد لم يكن أوسع الخفاء ملكا ولا أوفرهم متعة ولا أقدرهم فى جميع المناقب والمزايا . ولكنه ظفر بهذه الشهرة «الشعبية» لأسباب متعددة يرجع بعضها للحق وبعضها للمصادفة كما يغلب كل شهرة شعبية قديمة أو حديثة .

فهو أول من استقر له الملك من أبناء بيته بعد أسلافه الذين كانوا مشغولين بالتوطيد والتمكين .

وهو أول من اجتمع فى بلاطه الأدباء والشعراء والقصاصون والندماء بعد أن كانوا متفرقين أو غادين رائحين .

وهو الخليفة الذى طال ملكه واتسع الأمد فى المشارق والمغارب لترداد ذكره، إذ كان غيره لا يلبثون أن يذكروا حتى يبادرهم الخلع أو يطويهم الموت .

وهو الى جانب ذلك كله «شخصية» مفهومة بين جميع الطبقات ، لأنها على كبرها شخصية مستوية ليس فيها تعمق ولا غرابة : فابنه المأمون يحتاج الى ذهن فيلسوف ليفهم ويفقه ما يعنيه ، وأسلافه الاقوياء كانوا «عقدة» سيكولوجية للدارسين والمحللين : أما الزمن فلم يكن فيه جانب معضل ولا جانب غامض ولا جانب متفرد بالتخصص والندرة التى تفهما طائفة دون طائفة من الناس .

واتفق له من العنصر «الروائى» فى حياته ما لم يتفق لكثير من سابقيه ولاحقيه، ولو شاء كاتب قصاص أن يستخرج عشر روايات تدور بطولتها كلها على حياة هارون الرشيد لوجد الذخيرة الكافية فى تلك الحياة بأسرار القصص ونقائض الايام وحوافز الشعور .

وربما كان هذا هو العنصر الاهم من عناصر الشهرة الشعبية كما نرى فى اقاصيص ألف ليلة وليلة، فإن اسم هارون الرشيد فى هذه الاقاصيص هو اشيع الاسماء بين جميع الخلفاء والأمراء .

وسيبقى اسم هارون الرشيد كما كان من قبل عنوانا للحياة الفكرية التى انتهت فى عصره إلى أوجها الأعلى ، وخلاصتها انها حياة فكرية أخذت فى الاتساع والاتصال بالامم من طريق الدرس والاطلاع على ثقافات الامم الاجنبية وأنها فى ميدان الدرس والاطلاع كانت الغاية التى ارتقى اليها الفكر العربى قبل مشاركة الشعوب القديمة والحديثة فيما كان لها من علم وبحث وتفكير .

ولذا كانت هذه هي الحياة الفكرية فى عصر الرشيد، فأين هارون الرشيد الأديب الفنان الناقد من هذا العصر الثرى ؟!

وقد أورد رواة الأدب حكايات ونماذج عن أدب الرشيد ، سواء فى روايته للشعر وحبه له ، وبراعة نقده وإيثاره الرقيق الغزل منه، وحرصه على تربيه جيدة لأولاده ، وشعره هو ثم صدرا من بلاغته ، فى خطبه وتوقيعاته .

روى صاحب الاغانى بسنده عن اسحق الموصلى قال : قال لى جعفر بن يحيى يوما، وقد علم أن الرشيد اذن لى وللمغنين فى الانصراف يومئذ : صر الى حتى اهب لك شيئا حسنا، فصرت اليه فقال لى : أيما ، أهب لك الشىء الحسن ، أم أرشدك الى شىء تكسب به الف ألف درهم ؟ فقلت : بل يرشدنى الوزير أعزه الله الى هذا الوجه، فأنه يقوم مقام إعطائه إياى هذا الحسن ، فقال : إن أمير المؤمنين يحفظ شعر ذى الرمة حفظ الصبا ويعجبه ويؤثره ، فإذا سمع فيه غناء اطربه اكثر مما يطربه غيره ، وبعد حديث طويل قال : فغنيت مائة صوت وزيادة فى شعر ذى الرمة، فكان إذا سمع صوتا طرب وزاد طربه ، ووصلنى فأجزل .

ومن رواية عن الاصمعى عن ليلة حاضر فيها الرشيد واسمعه من متخير الشعر قال ثم قال (يعنى الرشيد) : أرويت للشماخ شيئا ؟ قلت نعم يا أمير المؤمنين . قال : يعجبنى من قوله هذا :

إذا رد فى ثنى الزمام ثنت له
جرانا كخوط الخيزران المعوج

قلت : يا أمير المؤمنين ، هى عروس كلامه، قال : فأيها الحسن من كلامه ؟ قلت الرائية وأنشدته .. إلي أن قال الاصمعى : ثم التفت (يعنى الرشيد) الى الفضل بن يحيى .. ثم قال يعجبنى مثل قول مسلم فى أبيك وأخيك الذى امتدحهما به ، مخاطبا حليلته ، مفتخرا عليه بطول الرأى فى اكتساب المغانم (حيث قال) :

أجدك هل تدرين أن رب ليلة
كأن دجاها من قرونك ينشر
صبرت لها حتى تجلت بغرة

كفـرة يحيـى حين يذكـر جعفـر

أفرأيت ما ألطف ما جعلهما معدنا لكمال الصفات ومحاسنها الخ ..

ومما يتصل بهذا الباب ما روى من أن الرشيد قال للمفضل الضبي.. أنشدنا بيتا أوله أعرابي في شملته ، قد هب من نومته، وآخره مدني رقيق ، قد غذي بماء العقيق قال المفضل : هولت علي يا أمير المؤمنين ! فليت شعري بأي مهر عروس هذا الخدر قال هارون : هو بيت جميل حيث يقول :

ألا أيها النوام ويحكمـو هبـوا

أسائلكم هل يقتل الرجل الحـب ؟

وكان الرشيد يكلف بجيد الشعر، ويكثر من استنشاده ، وأحب الشعر كان اليه الغزل الرقيق، وكان يؤثر في هذا الباب شعر أبي العتاهية. روى صاحب الاغاني بسنده الى ابراهيم الموصلي قال : كان الرشيد معجبا بشعر أبي العتاهية ، فخرج الينا وفي يده رقعتان على نسخة واحدة، فبعث باحداهما الى مؤدب لولده وقال : ليروهم ما فيها، ودفع الأخرى إلى وقال : غن في هذه الأبيات ، ففتحتها فإذا فيها :

قـال لمن ضـن بـوده

وكـوى القـلب بصـده

ما ابتلى الله فـؤادي

بك إلا شـؤم جـده

أيها السـارق عقلـي

لا تضـن بـرده

ما أرى حبـك إلا

بالغـا بـي فـوق حـده

وروى صاحب الأغاني أنه لما مات موسى الهادي سأل الرشيد «أبا العتاهية أن يقول شعراً في الغزل، فقال : لا أقول شعراً بعد موسى أبداً، فحبسه الرشيد ، كما

حبس ابراهيم الموصلى لأنه أبى كذلك أن يغنى وطال حبسهما حتى قال أبو العتاهية :

بابـى من كـان فى قلبـى لـه
مـرة حـب قلـيل فسـرق
يابنـى العبـاس فيكـم ملك
شـعب الاحسـان منه تفـترق
أنمـا هـارون خـير كـله
مـات كل الشـر مذ يوم خلق

وغنى فى هذا الشعر ابراهيم، ولما بلغ ذلك الرشيد دعا بهما، فأنشده أبو العتاهية، وغناه ابراهيم، فأعطى كل واحد منهما مائة ألف درهم ومائة ثوب .

وفى رواية أخرى لصاحب الأغانى أن الرشيد لما أمر بحبس أبى العتاهية والتضييق عليه حتى يقول الشعر الرقيق، صاح: الموت، أخرجونى فأنا أقول كل ما شئتم. ثم قال:

من لعبـد أذلـه مـولاه
ما له شـافع إليه سـواه
يشتكـى ما به إليه ويخشـاه
ويرجـو مـثل ما يخشـاه

فلما انتهى ذلك إلى الرشيد دعا به فاحضر، فقال له انشدنى قولك:

يا عتب سيدتى أمالك دين .

وفى حبس أبى العتاهية، وما قال من الشعر طلبا للخلاص روايات كثيرة، ونرى فى القدر الذى أوردناه كفاية وروى صاحب الأغانى أيضا عن الأصمعى قال: دخلت أنا واسحق الموصلى يوما على الرشيد، فرأيناه لقس النفس، فأنشده اسحق قوله:

وآمرة بالبخل قلت لها اقصـرى
فـذلك شـئ ما إليه سـبيل
أرى الناس خـلان الكرام ولا أرى

بخيـــــلا له حتى الممات خليـــل

قال فقال الرشيد: لا تخف إن شاء الله. ثم قال: لله در أبيات تأتينا بها، ما أشد أصولها، وأحسن فصولها، وأقل فضولها، وأمر له بخمسين ألف درهم. فقال له اسحق: وصفك والله يا أمير المؤمنين لشعرى أحسن منه، فعلام آخذ الجائزة. فضحك الرشيد وقال: اجعلوا لهذا القول مائة ألف دورهم. قال الأصمعى: فعلمت يومئذ أن اسحق أحذق بصيد الدراهم منى!

وكان الرشيد، يقول الشعر، ولا يقوله، بالضرورة، إلا تقصدا بالعاطفة. وقد ورد أنه غضب يوما على جارية له فحلف ألا يدخل إليها أياما. ثم ندم فقال:

صـــــد عنـى إذ رآنـى مفتـــتن

وأطال الصــــد لمــــا أن فطـــــن

كان مملوكـــى فأضحـــى مالكـــى

أن هـــذا من أعاجـيب الزمـــــن

وكان قد بايع بولاية عهده المأمون، فلما بدا له تقديم الأمين قال:

لقـــد بان وجه الرأى لى غير أننى

عدلت عن الأمر الذى كان أحـــزما

فكيف يرد الدر فى الضـــرع بعدما

توزع حتى صار نهبا مقســـــــما؟

أخاف التواء الأمر بعد استـــوائه

وأن ينقض الحبــل الذى كان أبرما

وحين حضرته الوفاة كان يردد هذا البيت، وأكبر الظن أنه من شعره:

وأنى من قــوم كـــرام يزيــــــدهم

شماسا وصبرا شـــدة الحـــدثان

ويتناول عبدالعزيز البشرى بلاغة الرشيد فى خطبه ووصاياه وتوقيعاته فيقول:(١)

١- الهلال - ١٩٤٠ / عبد العزيز البشرى ص ١١٥ .

«نورد عليك نماذج يسيرة من فنون بلاغاته، فى خطبه وتوقيعاته فمن خطبة له: أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإن فى التقوى تكفير السيئات، وتضعيف الحسنات، وفوزا بالجنة، ونجاة من النار. وأحذركم يوما تشخص فيه الأبصار، وتعلن فيه الأسرار. يوم البعث، يوم التغابن، ويوم التلاق، ويوم التناد، ويوم لا يستعتب من سيئة ولا يزداد من حسنة. يوم الزفة، إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع، يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور. واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون

«عباد الله: انكم لم تخلقوا عبثا ولم تتركوا سدى. حصنوا إيمانكم بالأمانة، ودينكم بالورع، وصلاتكم بالزكاة. فقد جاء فى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له، ولا صلاة لمن لا زكاة له. أنكم على سفر مجتازون، وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء، إلى دار بقاء. فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة، وإلى الرحمة بالتقوى، وإلى الهدى بالأمانة. فإن الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين، ومغفرته للتائبين، وهداه للمنيبين. قال الله عز وجل وقوله الحق: (ورحمتى وسعت كل شئ، فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة). وقال: (وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) ووصى الرشيد مؤدب الأمين فقال: يا أحمر، أن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه. فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة. وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين. أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وأمنعه من الضحك إلا فى أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه. ولا تمرق بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده اياها، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن فى مسامحته، فيستحلى الفراغ ويألفه. وقومه، ما استطعت، بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة». ومن بارع توقيعاته ما روى من أن ملك الروم كتب إليه يوعده، فكان جوابه: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله هارون أمير المؤمنين

إلى نقفور زعيم الروم: فهمت كتابك والجواب ما تراه دون ما تسمعه!جندى، فوقع الرشيد فى كتابه: سيعلم الكافر لمن عقبى الدار ووقع إلى عامل خراسان: داو جرحك لا يتسع، وإلى عامله على فارس: كن منى على مثل ليلة البيات ومما رووا من الدلائل على شدة فطنة الرشيد وعلمه بمطاوى المعانى، أن امرأة دخلت عليه، وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت: يا أمير المؤمنين، أقر الله عينك، وفرحك بما آتاك، وأتم سعدك، لقد حكمت فقسطت، فقال لها: من تكونين أيتها المرأة؟ فقالت: من آل برمك، ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم، فقال أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله، ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك، ثم ألتفت إلى الحاضرين من أصحابه، فقال: أتدرون ماذا قالت هذه المرأة؟ فقالوا ما نراها قالت إلا خيرا! قال: ما أظنكم فهمتم ذلك: أما قولها أقر الله عينك، أى أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها وفرحك بما أتاك، فأخذته من قوله تعالى: (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغته) وأما قولها وأتم الله سعدك، فأخذته من قول الشاعر:

إذ تم أمــــر بــدا نقصـــــه

ترقب زوالا إذا قيـــــــل تم

وأما قولها لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله تعالى: (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) فتعجبوا من ذلك

وعن دعابة الرشيد يقول البشرى: (١)

« كانت فى الرشيد دعابة رفيقة، وأن من لا يستطيب الفكاهة، ولا يستريح إلى النكتة ينضح بها حاضر البديهة، فليس من الأديب فى شئ ! ولقد طال المقال، فلنكتف فى هذا الباب بذكر حادثة واحدة تدلك على موقع النكتة منه، واسراعه إلى العفو، على خطورة الأمر، والأستحقاق لاشد العقاب:

زعموا أن رجلا ادعى النبوة فى زمانه، فلما أحضروه قدامه قال له: لكل نبى بينة

١- نفس المصدر .

تدل على نبوته. فأى شئ من دلائلك؟ قال: اسأل ما تريد. قال: أريد أن تصير هؤلاء المماليك المرد كلهم بلحى. فأطرق الرجل إلى الأرض ساعة، ثم رفع رأسه وقال: كيف يحل أن أصير هؤلاء المرد بلحى، وأغير هذه الصورة الحسنة؟ ولكن أصير هؤلاء الذين هم بلحى مردا فى لحظة واحدة! فاستحسن الرشيد جوابه وعفا عنه

فإذا كانت هذه جوانب شخصية الرشيد كأديب، وفنان، وناقد ذواقة، وظريف بجانب شخصيته الأخرى كأبرز دهاة الساسة، وكفاتح عظيم، وقائد محنك داهية لأدركنا سر تلك النهضة الفكرية فى عهده، ولوضعنا أيدينا على معالم عصر هارون الرشيد بكل ما يمثله من عمران ونهضة وحضارة مزدهرة.

الفصل التاسع

مصر فى عصر الرشيد

كيف كانت مصر فى عصر الرشيد؟

وما هى ملامح الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية فى عصر خامس الخلفاء العباســـيين (٧٨٦ - ٨٠٩)م والذى بلغ حكمه أوج ازدهار الدولة العباسية فى جميع المجالات ؟

وهل كان مثل هذا الأزدهار يسود مصر فى تلك الحقبة التاريخية الهامة من تاريخ الدولة الإسلامية ؟ .

يرى المؤرخون (١) أن مصر كانت تمر فى عصر الرشيد بفترة من السكينة والرخاء، ولم تكن بمعزل عن تلك النهضة القومية التى شملت أنحاء الخلافة كلها فى عصر هذا الخليفة العبقرى، حيث كانت مصر فى عصره ولاية خلافية، تلقتها الدولة العباسية فيما تلقت من تراث الدولة الأموية الشاسع، بيد أنها كانت تحتفظ دائما بين الولايات الخلافية بمركزها الممتاز الذى كانت تحتفظ به منذ الفتح الإسلامى، وكانت أيام الدولة الأموية قاعدة الفتوحات الإسلامية فى شمال أفريقيا، وحقل الخلافة للمحافظة على هذه الفتوحات، تسير منها البعوث والحملات إلى الغرب لتأييد سلطة الخلافة فى أقطار المغرب والأندلس، ولكن الدولة العباسية لم تستطع إقامة سلطة حقيقية فى غرب مصر أى فى ليبيا وتونس، حيث كانت تقوم فى عصر الرشيد وبموافقته دولة مستقلة هى دولة الأغالبة، تنضوى تحت لواء الخلافة الأسمى، وتشرف على شئون طرابلس، وبذا غدت مصر حد الدولة العباسية وبابها من جهة الغرب، فكان ذلك يقع عليها فى نظر الخلافة أهمية خاصة من الناحيتين السياسية والعسكرية.

ويرى المؤرخ الكبير محمد عبد الله عنان(٢) أن الجيوش العباسية عندما أستولت على مصر من يد الأمويين سنة ١٣٢ه‍ (٧٥٠)م لم تشأ أن تنزل بالفسطاط عاصمة مصر الأسلامية وقاعدة الأمارة والحكم منذ الفتح، ونزلت فى الفضاء الواقع فى شمالها، وابتنت هنالك قاعدة جديدة سميت «بالعسكر» نسبة إلى الجند الذين نزلوا

(١) الهلال/ محمد عبد الله عنان/ الهلال ١٩٤٠/ ص ١١١٨ .

(٢) المرجع السابق/ ص ١١١٨

بها، وبنيت فيها دار جديدة للأمارة ومسجد عرف باسم جامع العسكر، ثم نمت العسكر واتسعت حتى اتصلت بالفسطاط، وغدت مدينة ذات شأن وكانت العسكر عاصمة مصر الإسلامية أيام الرشيد، واستمرت كذلك مدى الحكم العباسي حتى قيام الدولة الطولونية، وقيام مدينة القطائع عاصمتها الجديدة فى سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م) ويرصد عنان أحوال مصر السياسية والأقتصادية والفكرية فى عصر الرشيد الزاهر فيقول: (١)

« فى عصر الرشيد (١٧٠ – ١٩٣هـ) تعاقب على مصر الإسلامية عدد كبير من الولاة يبلغ زهاء العشرين، والواقع أن ولاة مصر أيام الدولة العباسية لم يكن مكثهم فى مناصبهم يتعدى شهورا أو عاما إذا استثينا القليل منهم، وقد كان هذا شأنهم أيام الرشيد، والظاهر أنها كانت سياسة مرسومة، ترمى الخلافة بها إلى تلافى مطامع الولاة الأقوياء.

«ومما يلاحظ أن ولاة مصر أيام الرشيد كان معظمهم من الأسرة العباسية ذاتها، وبلغ عددهم أحد عشر واليا من عشرين مصر فى تلك الفترة، وكان أول ولاتها يومئذ عباسيا هو عيسى بن موسى وليها شهر ربيع الأول سنة ١٧١هـ – أعنى عقب تولى الرشيد الخلافة بعام، وهو الذى ينسب إليه الوصف المأثور لشاطئ النيل إذ يروى أنه جلس يوما بميدان مصر، وأطال النظر ونواحيه، فقيل: ما يرى الأمير، فقال: «أرى ميدان برهان، وجنان نخل، وبستان شجر، ومنازل سكنى، ودور خيل، ،جبان أموات، ونهرا عجابا، وأرض زرع، ومرعى ماشية، ومرتع خيل، وصائد بحر، وقانص وحش، وملاح سفينة، وحادى أبل ومفازة رمل، وسهلا وجبلا، في أقل من ميل فى ميل»

ومنذ سنة ١٧٥هـ نرى ثبت ولاة مصر طوال أيام الرشيد– مع استثناء ثلاثة أو أربعة– كله عباسيا، ومنهم عدد من خواص بنى العباس وأقرب الناس إلى الخليفة مثل موسى بن عيسى، وقد ولى مصر ثلاث مرات، وابراهيم بن صالح، وقد وليها مرتين،

١– نفس المرجع السابق ص ١١١٩ .

وعبيد الله ابن المهدى أخو الرشيد، وقد وليها ثلاث مرات، وغيرهم من خواص الأسرة وأبناء عمومة الخليفة. ونستطيع أن نحمل هذا الأختيار إلى بواعث العصبية والثقة الخاصة أكثر مما نحمله على بواعث الاصطفاء المجرد. وقد كانت الدولة العباسية منذ قيامها تعتمد على عصبية الأسرة فى توطيد سلطانها، وفى السيطرة على الجيش، فكان كثير من القادة وعمال النواحى الهامة من أقطاب الأسرة نفسها.

وكانت مصر أيام الرشيد وطوال أيام الدولة العباسية من أخصب ولايات الخلافة من حيث الموارد والخراج. وكانت خطة الخراج تعتبر عندئذ إلى جانب خطة الصلاة، وخطة القضاء، وهى العناصر الثلاثة التى تقوم عليها سلطة الحكومة المحلية، أهم الخطط الثلاث. وكان الولاة يجمعون فى الغالب بين خطتى الصلاة والخراج. وأحيانا ينفرد الوالى بالخراج أو الصلاة، وتستند الخطة الأخرى إلى شخص آخر. أما خطة القضاء فكانت دائما مستقلة بذاتها. وقد انتهت إلينا بعض الارقام عن خراج مصر فى تلك الفترة، فقيل أن موسى بن عيسى حمل منه أثناء ولايته إلى الرشيد ألف (مليونى) ومائة ألف وثمانين ألف دينار بعد العطاء والمؤن وسائر الكلف، وكان خراج مصر يبلغ يومئذ أكثر من أربعة آلاف دينار، ومما يدل أيضا على أن مصر كانت حصنا للخلافة العباسية، أنها كانت تفرد من دخلها مائة ألف دينار للانفاق على شئون افريقية التى كانت يومئذ باضطراباتها المتوالية عبئا على الخلافة حتى أن الرشيد لما عرض عليه ابراهيم بن الأغلب أن يتولى أمر افريقية على أن يترك المائة ألف التى تحمل إليها من مصر، وعلى أن يقدم هو من افريقية إلى الخلافة أربعين ألفا لم يتردد فى الموافقة على ولايته. وذكر لنا ابن اياس بهذه المناسبة «أن الخلفاء العباسيين كانوا يشترطون على ولاة مصر فى تقليدهم، الخيل العربية والأثواب الديبقية شغل تنيس، والمقاطع الشرب الأسكندرانية، والطرز الصعيدية واجلال الخيل، وتشترط عليهم ضيافة العسل النحل المصرى من عسل بنها، وتشترط عليهم البغال والحمير وغير ذلك من الأصناف التى لا توجد إلا بمصر». إذن فقد كانت مصر تمتاز يومئذ فى نظر الخلافة – إلى جانب وفرة

خراجها - بمنتجاتها ذات الشهرة الخاصة «والظاهر أن تشدد الولاة فى أمر الخراج وتوفيره، كان يصل إلى حدود لا تطاق، فقد وقعت بمصر فى تلك الفترة أكثر من ثورة من جراء التعسف فى فرض الخراج، منها ثورة وقعت سنة ١٧٣هـ فى ولاية محمد بن زهير الازدى، وثورة أخرى قام بها أهل الحوف سنة ١٧٨هـ فى ولاية اسحاق بن سليمان العباسى، وبلغ من خطورتها أن بعث الرشيد لاخمادها قائدا من أعظم قواده هو هرثمة بن أعين الذى أسندت إليه ولاية مصر عقب ذلك فأذعن أهل الحوف واستقاموا وليس فى حوادث مصر الداخلية أو العامة فى ذلك الحين ما يستحق الذكر سوى القليل، فلم تشترك مصر يومئذ فى مشروعات الخلافة أو حملاتها العسكرية وقد كانت تنحصر يومئذ فى ولاياتها الشرقية والشمالية، ولا سيما فى هضاب آسيا الصغرى، حيث كانت الحرب تضطرم بلا انقطاع بين جيوش الخلافة والدولة البيزنطية، بيد أن مصر ساهمت بالمال والجند فى اخماد الثورة فى افريقية، ومنها سار هرثمة بن أعين فى سنة ١٧٨هـ لمحاربة العصاة فى برقة وافريقية، واستمر عامين حتى أتم مهمته بنجاح، وفى سنة ١٧٩هـ سار عبيد الله بن المهدى والى مصر فى الجيش إلى الإسكندرية لرد الفرنج (الروم) الذين حاولوا النزول فيها . وفى العام التالى (سنة ١٨٠هـ) فى ولاية موسى بن عيسى الثالثة، وقع بمصر زلزال عظيم أحدث كثيرا من الذعر والتخريب، وأصاب منارة الإسكندرية الشهيرة فسقطت قمتها .

أما عن الحركة الفكرية والإجتماعية فى مصر فى عصر الرشيد فيقول عنان (١) : «وقد ذكرنا فيما تقدم أن العاصمة مصر الإسلامية فى ذلك الحين كانت مدينة العسكر، وأن العباسيين رغبوا عن اتخاذ الفسطاط قاعدة لحكم مصر بيد أن العسكر لم تكن فى الواقع سوى مركز للحكم والإدارة، ومنزل للولاة وبطانتهم، أما الفسطاط فقد لبثت عاصمة مصر الحقيقية بالرغم من قطيعة الولاة وإغضائهم، ولم تفقد بخلوها من مركز الإمارة شيئا من نفوذها الفكرى والإجتماعى، وكان مسجدها الجامع (جامع عمرو)

١- الهلال / ١٩٤٠ / ص ١١٥٨ .

دائما مركز القضاء العالى وكان رأس الحركة الفكرية والأدبية فى ذلك العصر. وفى مدينة الفسطاط بدت منذ القرن الأول للهجرة طلائع تلك الحركة الفكرية التى نمت وازدهرت فى القرن الثانى، وحفلت بجمهرة كبيرة من الفقهاء والأدباء.

،كانت هذه الحركة فى العصر الذى نتحدث عنه يومئذ فى أوجها وكانت تضم عددا من أقطاب الفقهاء والمحدثين الذين يعتبرون فى الطبقة الأولى بين فقهاء الأسلام ورواة السنة مثل عبد الله بن لهيعة، والليث بن سعد، وعبد الله بن وهب، وعبد الله بن عبد الحكم المصرى وغيرهم وفى نهاية القرن الثانى - أعنى بعد وفاة الرشيد بقليل - وفد الأمام محمد بن ادريس الشافعى، قطب الشريعة وحجة التشريع إلى مصر، وسطعت مجالسه الفقهية والأدبية بالفسطاط ومسجدها الجامع، واشتهرت حلقات الفسطاط العلمية والأدبية يومئذ فى العالم الإسلامى وأسبغ عليها الشافعى سحرا وبهاء وروعة. وكان أشهر هذه الحلقات أو الأبهاء الأدبية حلقة بنى الحكم، وهم أسرة مصرية نابهة، كثيرة المال والوجاهة، أنجبت كثيراً من كبار الفقهاء منهم عميد الأسرة عبد الله بن عبد الحكم المتقدم ذكره وأولاده سعد ومحمد، وعبد الرحمن بن عبد الحكم أقدم مؤرخ لمصر الإسلامية، وكان بنو عبد الحكم من أعلام الفقه والتفكير والأدب في مدينة الفسطاط منذ منتصف القرن الثانى، وكانت حلقاتهم العلمية والأدبية تجذب أكابر العلماء الوافدين علي مصر من مختلف أنحاء العالم الإسلامى، وهم الذين استقبلوا الأمام الشافعى، ومهدوا له سبل الإقامة والدرس بمصر، فبث مقدمه فى الحركة الأدبية روحا جديداويخلص المؤرخ الكبير محمد عبد الله عنان إلى أن مصر الإسلامية فى عصر الرشيد كانت تجوز في عهد الرشيد فترة من السكينة والرخاء، لم تكن بمعزل عن تلك النهضة القومية التى شملت أنحاء الخلافة كلها فى عصر هذا الخليفة العبقرى، بل كانت فوق ذلك تجيش بنهضتها الخاصة الفكرية والإجتماعية، وكانت تحتفظ بالرغم من اندماجها فى الوحدة الخلافية الكبرى، بكثير من روحها المستقل، وشخصيتها الممتازة اللذين احتفظت بهما دائما فى جميع العصور الإسلامية.

الفصل العاشر

هارون الرشيد
رجل السياسة والسيف !

هارون الرشيد
سياسيا وقائدا فاتحا !

رغم إنغماس هارون الرشيد فى حياة اللهو والطرب ، وامتلاء لياليه ببهجة الأنس، وغناء القيان، وحكايات الجوارى الحسان، ونوادر الشعراء وأسمارهم ، إلا أن عصره أمتاز بازدهار الامبراطورية الاسلامية تكاد تطوق المعمور حول البحر المتوسط ، من البوسفور إلى جبال البرانس يتلاقيان فى أواسط أوروبا .

وقد شهد عصره أزهى العلاقات السياسية الودية بينه وبين شارلمان امبراطور فرنسا وألمانيا وإيطاليا.

ولكن كيف حدثت السفارة بين الرشيد وشارلمان؟

لما كانت السفارات طويلة الأمد لبعد ما بين المشرق والمغرب وصعوبة الأنتقال بينهما فى ذلك الزمان: فالسفارة الأولى استغرقت ما بين عامى ٧٩٧ و ٨٠١، ذلك أن شرلمان بعث فى أواخر عام ٧٩٧ وفدا مؤلفا من سفيرين فرنجيين يقال لاحدهما سجسمند والآخر لنشفرد ومعهما ترجمان يهودى يجيد العربية أسمه اسحق. وبعث شرلمان إلى الرشيد على لسان الوفد يلتمس أمورا يغلب على الظن أنها ثلاثة:

(١) أن يعهد الرشيد إلى شرلمان بالقيام على المصالح العباسية فيما يغلب عليه شرلمان من أرض الأندلس، وأن يشد شرلمان أزر الحزب، القائم بالدعوة العباسية فى تلك البلاد التى أقتطعها بنو أمية عن ملك بنى العباس

(٢) أن ينعقد بين العاهلين حلف وتعاون من شأنه أن يطلق يد شرلمان فى ملك بنى أمية بالأندلس ويطلق يد الرشيد فى ملك الدولة البيزنطية بالمشرق

(٣) أن يسهل الرشيد لزوار بيت المقدس وحجاجه من الفرنجة وأتباع الكنيسة الكاثوليكية سبيل زيارته وحجه، وأن يعفيهم من القيود والتكاليف التى وضعها الرشيد إذ ذاك على أهل الذمة، وأن يحمى أولئك الزوار والحجاج من عدوان الكنيسة

الإرثوذكية البيزنطية .

وتقول المصادر الفرنجية المتقدمة الذكر أن الوفد عاد من بغداد يحمل موافقة الرشيد على ما طلب شرلمان، وأن سجسمند ولنشفرد توفيا أثناء العودة، فعاد اليهودى وحده.على أن الرشيد لم يكتف بصرف وفد شرلمان مكرما بل رد على السفارة بسفارة مثلها، فأوفد إلى شرلمان سفيرين أحدهما ابراهيم بن الأغلب الذى صار إليه أمر افريقية، وبعث معهما إلى شرلمان بهدية تليق بمقام المهدى والمهدى إليه، فيها أعطار وتحف شرقية نفيسة وفيها ساعة مائية دقاقة وفيل عظيم الخلق يكنى بأبى العباس. وتقول المصادر الفرنجية أن بطرك بيت المقدس أوفد فى نفس الوقت إلى شرلمان راهبا يحمل إليه علما ومفتاح أهل المقدس ومفاتيح مدينة أورشليم نفسها، واعتبرت المصادر ذلك بمنزلة نقل للسلطة على بيت المقدس وحمايته إلى العاهل الفرنجى.

أما السفارة الثانية فابتدأت عقب إنتهاء السفارة الأولى، فقد أوفد شالمان إلى الرشيد فى عام ٨٠٢ (١٨٦هـ) وفدا كان من بين أعضاءه رجل أسمه راد برت، ولا نعلم بالدقة الغرض من إيفاد هذا الوفد ولكنا نعلم أن راد برت المذكور توفى أثناء عودة الوفد إلى مدينة آخن، وأن الوفد بلغ هذه العاصمة عام ٨٠٦م، وأن الرشيد قابل هذه السفارة بسفارة مثلها بأن أوفد رسولا تسميه المصادر عبد الله ووجه معه إلى شرلمان بخلعة نفيسة من القصب وبخيمة فاخرة الصنع، ويقال أن الخلعة المذكورة هى التى أدرج فيها بعد جثمان القديس كوثبرت المدفون فى كاتدرائية درهام، وأنها لا تزال موجودة، وأنها قد طرزت عليها صور سمك وطيور شرقية كما طرزت على حاشيتها بالخط الكوفى الجميل عبارة «لا إله إلا الله» وتقول المصادر الفرنجية بسفارة ثالثة بعث بها شرلمان إلى الرشيد فى عام ٨٠٧م، ولكن الرشيد لم يعش حتى يرد عليها بسفارة من قبله فقد توفى بعد ذلك بعامين، فتولى الرد عليها ابنه المأمون عندما استتب له أمر الخلافة وذلك حوالى عام ٨١٣م.

ولقد أحصى المؤرخ الروسى بارتولد ما تبقى حتى يومنا من التحف والهدايا التى

وجه بها الرشيد إلى صديقه شرلمان فإذا هى تشمل على الأشياء الأتية: بوق من العاج محفوظ فى مدينة آخن، سيف محفوظ بمدينة ويانة، صينية من الذهب محلاة بقطع من الزجاج المختلفة الألوان وعليها صورة لخسر والأولى مصنوعة من البلور. وهذه الصينية محفوظة فى دير سنت دنيس، قطع من قطع شطرنج شرقى محفوظة فى الدير المذكور، ابريق من الذهب محفوظ فى دير كنتون فلليس، وثمان شوكات من التاج الشوكى يقال أنهم ألبسوه رأس السيد المسيح عند صلبه.

ويذكر عبد الحميد العبادى أن اختلاف المؤرخين فى علاقة الرشيد بشارلمان له أسباب فيقول: هذه خلاصة ما ترويه المصادر الفرنجية عن العلاقات السياسية والودية بين الرشيد وشرلمان، وقد أختلف المؤرخون الأوربيون المحدثون من أوائل القرن التاسع عشر حتى وقتنا هذا فى شأن هذه الرواية اختلافا شديدا، فمن مصدق لها ومكذب. فبوكفيل وبارتولد أميل إلى تكذيبها إلا فى القليل مما أتت به ورينو وبرهييه وبكلر يصدقونها وأن اختلفوا فى تأويلها . ولكل من الفريقين حجج يدلى بها فى الدفاع عن رأيه. وأهم ما يحتج به الفريق الأول سكوت مصادر العربية المطلق عن ذكر أى شئ يتصل بهذه العلاقات. ويذهب هذا الفريق إلى أن الهدايا التى يقال أن الرشيد بعث بها إلى شرلمان أنما افتعلها اليهودى اسحق، وأن من المستحيل أن ينزل الرشيد عن شئ من حقوقه السياسية لشرلمان. واهم ما يحتج به الفريق الثانى انسجام الرواية المذكورة مع الأحوال الدولية العامة فى ختام القرن الثامن الميلادى وبداية القرن التاسع، ويلاحظ بعضهم فى هذه العلاقة البداية التاريخية لعلاقة فرنسا بالشرق الأدنى، تلك العلاقة التى نمت وتطورت حتى انتهت بالأنتداب الفرنسى على سوريا عقب الحرب الكبرى.

ويورد الدكتور العبادى أسباب ترجيحه لرأى الفريق الثانى حول علاقة الرشيد بشارلمان ويجملها حسب رؤيته التاريخية ولأسباب واقعية فعلية تؤكد وجهة نظره فيقول: (١)

١- المرجع السابق / ص ١١٠٧ .

«ونحن على وجه العموم نرى رأى الفريق الثانى الذى يعتد بالرواية الفرنجية، ونراها تؤرخ علاقة سياسية نشأت فعلا بين الدولتين العباسية والفرنجية. ولا عبرة لسكوت المصادر العربية، فالمصادر العربية تكاد تهمل ذكر علاقات الدولة الإسلامية الخارجية أهمالا تاماً، وليس يصح في مقام التدليل التاريخي أن يرفض دليل ايجابى ممكن ومقبول عقلا من أجل دليل سلبى أوظنى. ثم أن سياق الحوادث العامة فى أواخر القرن الثامن يؤيد الرواية الفرنجية إلى حد بعيد ويظهر الرواية العربية فى مظهر التقصير. فالمستعرض لحوادث الشرق والغرب لذلك العهد والمتتبع لعلاقة دولهما بعضها بعض يرى أن الدولتين الإسلاميتين العباسية والأموية الأندلسية كانتا أبدا فى مكايدة وخصام مكتوم ولكن تدل عليه أدلة كثيرة لا يتسع المقام لسردها. كما يلاحظ أن الدولتين النصرانيتين الكبيرتين البيزنطية والفرنجية، كانتا تقفان بعضهما مع بعض نفس الموقف الذى كانت تقفه الدولتان الإسلاميتان بعضهما من بعض، وكانت البابوية منحازة إلى جانب الدولة الفرنجية، وذلك بسبب الخلاف المذهبى بين كنيستى القسطنطينية وورومية، وبسبب الثورة التى بعثها أباطرة بيزنطية على عبادة الصور، وسخط البابوات على هذه الثورة ثم أن الحروب التى كانت تقع بين الدولتين العباسية والبيزنطية فى الشرق كان يقع ما يشبهها ويشاكلها فى الغرب بين الدولتين الأموية والفرنجية فطبيعى والحالة هذه أن يتم نوع تفاهم على أقل تقدير بين أموبى الأندلس وأباطرة بيزنطة، وهو ما تصرح بحصوله المصادر العربية الأندلسية وبخاصة كتاب نفح الطيب للمقرى. وطبيعى كذلك أن يبتعث هذا التفاهم تفاهما مثله على أقل تقدير بين ملوك الدولة الفرنجية وخلفاء الدولة العباسية، وهوما تصرح به المصادر الفرنجية التى سبق ذكرها. فقد ظهر أذن أن سكوت المصادر العربية عن أمر العلاقة بين شرلمان والرشيد لا ينهض دليلا علي انتفاء هذه العلاقة. ثم ان الاحداث الدولية التى وقعت في الشرق والغرب فى ختام القرن الثامن وبداية التاسع مما يؤيد الرواية الفرنجية. فقد حمل شرلمان من حيث هو« حليف» للرشيد على شمال شرقى الأندلس، وانشاء الثغر

الأسباني على الحد الجنوبي الغربي لفرنسا، واستبقى عليه عماله من المسلمين، واستولى على برشلونه عام ٨٠٢، وأنشأ علاقات سياسية بينه وبين عمال الثغور الاسبانية مثل سرقسطة وغيرها. كل ذلك في نفس الوقت الذى شدد فيه الرشيد الوطأه على ملك الدولة البيزنطية برا وبحرا، وحمل نقفوز على طلبه الصلح و الرضى بآداء الجزية وذلك عام ٨٠٤.

ولكن ما هو الاعتبار الشرعي لهذه العلاقات ؟

يرى د. العبادى أن الاعتبار الشرعى أو «التكيف القانونى» للعلاقة بين الرشيد وشارلمان، وهو الأمر الذى اشكل على بعض المؤرخين المحدثين مثل برهيبيه ففهم من نصوص الرواية الفرنجية أن الرشيد قد تنازل لشرلمان عن حقوق علي الأندلس وبيت المقدس غير أن الكاتب الإنجليزى بكلر قد وفق إلى فهم الأمر على حقيقته، فقد أدرك أن الخلافة هى الولاية الكبرى فى الدولة الإسلامية، وأن ما سواها من الولايات متفرع عنها وتابع لها، فمن حيث الولايات الأندلسية لم يزد الرشيد على أن جعل شرلمان «واليا» عليها من قبله. ولا يعترض على ذلك بنصرانية شرلمان، فقد جوز الفقهاء (كالماوردى فى الأحكام السلطانية) للخليفة اقرار امارة الغصب والأستيلاء ولو كان الغاصب غير مسلم نزولا على حكم الضرورة وبشرط أن يرعى الغاصب مصلحة من فى امرته من المسلمين. وامارة شرلمان على الولايات الأندلسية هى فى واقع الأمر من قبيل امارة الغصب والأستيلاء المذكورة. أما مسألة بيت المقدس فالباحث الخبير بانظمة الدولة الإسلامية لا يرى فيها أكثر من أن الرشيد قد بعهد إلى شرلمان فى رعاية الشئون الدينية لهذا البلد بدلا من ولاة الأمر البيزنطيين وهو أمر يتفق وما جرى عليه المسلمون منذ قامت الدولة الإسلامية حتى وقتنا هذا، فقد جروا على أن يسندوا ادارة شئون أهل الذمة الدينية إلى رجال من أهل الذمة انفسهم. واذن فلم يكن ثم نقل لسلطان الرشيد على بيت المقدس إلى شرلمان ولا انشاء لحماية فرنجية على ذلك البلد تقلدها شرلمان. بل أن حقيقة الأمر أن شرلمان قد وضع نفسه فى الحالين موضع تابع

من اتباع الرشيد وعامل من عماله. وربما كانت الخلعة الفاخرة التى بعث بها الرشيد إليه هى الرمز المادى لتلك السيادة وذلك الخضوع ويخلص الدكتور العبادى إلى نتيجة هامة من علاقة هارون الرشيد الحميمة بشارلمان فيقول: «فإذا عرفنا أن العلاقة السياسية التى وصفناها قد استقرت حوالى عام ٨٠٠، وأن البابا قد توج فى العام المذكور شرلمان امبراطوراً على الدولة الرومانية الغربية – على أن يستمد منه العون المادى – وأن الأمبراطور نقفور البيزنطى قد رضى فى عام ٨٠٤ بحمل الجزية إلى الرشيد، فقد تبين لنا أن الرشيد لم يعد فى عام ٨٠٤ (١٨٨هـ) خليفة للمسلمين فحسب بل لقد اصبح من الوجهة النظرية على أقل تقدير السيد الأعلى للعالم المسيحى، وتلك لعمر الحق منزلة لم ينلهاملك قبله ولا بعده على الطلاق وقد يكون طريفا أن نلاحظ أن العلاقة بين الرشيد وشرلمان قد نمت وازدهرت واثمرت فى أواخر القرن الثامن الميلادى، فهى بذلك تتضمن رداً صادراً من أعماق الزمن على دعوى المدعين بأن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا. إلا لقد التقيا وتصافحا منذ أكثر من ألف عام على نحو قد يعجب له أبرع ساسة القرن العشرين .

أما هارون الرشيد قائدا فاتحا فلذلك قصة أخرى، حيث تقدم لنا فتوحات هارون الرشيد وجوها ثبتا حافلا بالبطولات العظيمة، فتضاف إلى مواهبه واهتماماته الفنية والسياسية والعمرانية، ناحية أخرى من عبقريته هى عبقريته الحربية لقائد فاتح دانت له الكثير من البلدان والمواقع .

الفصل الحادى عشر

هارون الرشيد ونكبة البرامكة !

نكبة البرامكة

كانت نكبة البرامكة نقطة سوداء فى مسيرة هارون الرشيد، وبالرغم مما يكتنفها من غموض إلا أنها تذكرنا بمذبحة القلعة التى قام بها محمد على ضد المماليك الذى تخلص منهم بضربة واحدة تأميناً لملكه، ولكن لماذا تخلص هارون الرشيد من البرامكة وفتك بهم رغم كونهم هم الذين تحملوا أعباء الخلافة عن الرشيد فى أول عهده؟ لماذا قام بتلك المذبحة الشهيرة ضدهم رغم أنهم ساعدوا على استقرار حكم الرشيد، وخدموا المدنية الإسلامية خدمة كبيرة ؟ اختلفت آراء المؤرخين فى سر هذه النكبة التى حلت بالبرامكة وتقييم دور الرشيد فى تلك المذبحة؟فماذا نجد؟ يقول جرجى زيدان عن هذه النكبة: (١) كان البرامكة من الشيعة وكان جدهم خالد قد بايع للعلويين قبل العباسيين مثل سائر أهل خرسان وفارس فلما غلب العباسيون وشاهد فتكهم بأبى سلمة ثم بأبى مسلم وسواهما ممن يريد الخلافة للعلويين رأى من الحكمة وسداد الرأى أن يغضى عن ذلك الأمر وأخلص الخدمة للسفاح ثم للمنصور. وسار ابنه يحيى وأولاده على نحو ذلك وهواهم لا يزال مع الشيعة العلوية من ايثار آل على لكنهم كانوا يكتمون ميلهم وخصوصا فى خلافة الرشيد لأنه كان شديد الوطأة على العلويين وشيعتهم يتتبع خطواتهم ويقتلهم وكان يكره الشيعة منذ صباه وهم يخافونه من قبل الخلافة. فلما تولى الخلافة أمر بإخراج الطالبيين جميعا من بغداد إلى المدينة المنورة واشتهر بذلك حتى أصبح الشعراء يتقربون إليه بهجائهم وكان شعراء العلويين يهجونه لهذا السبب وهم لا يجسرون على الظهور فى حياته وكان البرامكة يكرهون تعصب الرشيد على العلوية ويعدون عمله حراما ويكظمون على أنهم كانوا يساعدون تلك الشيعة سرا بما يبلغ إليه امكانهم وكان كبارهم يجتمعون إلى جعفر وجيه البرامكة يومئذ وصاحب

---

(١) الهلال/ ١٩٤٠/ ص ١١١٣

الصوت الأعلى عند الرشيد ويذكرون أعمال الرشيد وجعفر يحاذر أن يبلغ ذلك إليه ولكن حساده في بلاط الخليفة وأكثرهم من العرب أو ممن ينتمى إليهم كانوا يسعون به إلى الرشيد وأشدهم غيظا منه وأقدرهم على الكيد به زبيدة أم الأمين لأنه فضل ابن ضرتها المأمون على ابنها. وقد اضطغنت عليه من كانوا في الكعبة وقد جاءوها لتعليق كتابي العهد للأمين والمأمون فلما حلف الأمين اليمين على جارى العادة وهم بالخروج من الكعبة رده جعفر وقال له «فإن غدرت بأخيك خذلك الله» وطلب إليه أن يحلف على ذلك ثلاثا فشق طلبه على أمه زبيدة فحقدتها عليه من جملة من حرض الرشيد على الإيقاع به فضلا عما بينهما من العداوة الجنسية وناهيك بمن كان يحسد البرامكة من أمراء العرب وخصوصا آل الربيع وآل مزيد الشيباني فإن البرامكة أضعفوا نفوذهم في الدولة وأغروا الرشيد بهم غير حسادهم من الفرس، حتى عمهم محمد بن خالد فأنه كان من جملة حسادهم والساعين في أذاهم هؤلاء جميعا كانوا يوغرون صدر الرشيد على جعفر تارة من حيث تشيعه وطورا من حيث استبداده بالدولة، وآونة من حيث استئثاره هو وأهله بالأموال والرشيد يحفظ ذلك ويتدبره، وقد غلب عليه ما غرس في نفسه من أفضال يحيى عليه وآثار أبنائه في تنظيم دولته واحياء معالمها وأن يكن ساءه ما يبديه جعفر أحيانا من نصرة العلويين أو استنصارهم، فإن جعفر لما ولاه الرشيد المغرب استخلف على مصر رجلا شيعيا فكان الرشيد صابرا على ذلك يترقب الفرص ثم يستطرد جرجي زيدان فيتحدث عن الشيعة العلوية بخرسان فيقول «كان الخراسانيون ومن والاهم من أهل طبرستان والديلم قبل قيام العباسيين من شيعة على، وانما بايعوا للعباسيين مجاراة لأبى مسلم أو خوفا منه. فلما رأوا ما حل به من القتل غدرا غضبوا وتعاقدوا على الأخذ بثأره، ثم رأوا المنصور فتك بالروانيدية ! اخوانهم وهم من جماعة أبي مسلم، ثم بنى بغداد وتحصن فيها، فتربصوا، وإذا هو قد حارب العلويين وبطش فيهم وفر من بقى من ولد على إلى أطراف المملكة الإسلامية في خراسان والمغرب وأخذوا يبثون دعايتهم وينشرون دعوتهم سراً، فكان الخراسانيون من

أقوى أنصارهم انتقاما من المنصور لقتله أبي مسلم وعملا بتعاقدهم عليه فكان العباسيون انما يخافون على دولتهم من خراسان لأنها شيعة العلويين وأهلها أشداء ولهم فى قلوب الناس مكانة منذ نقلوا الخلافة من بنى أمية إلى بنى العباس. وكان داعية الشيعة هناك في أيام الرشيد يحيى أخا محمد بن عبد الله الذى حاربه المنصور وقتله. فظهر يحيى هذا فى الديلم سنة ١٧٦هـ وقويت شوكته حتى خافه الرشيد فسرح إليه الفضل ابن يحيى، فاستنزل الفضل من بلاد الديلم بالحسنى على أن يشترط ما أحب، ويكتب له الرشيد بذلك خطه، فكتب له أمانا أمضاه الرشيد وجلة بن هاشم، وجاء الفضل ومعه يحيى إلى بغداد فوفى له الرشيد بكل ما أحب وأجرى له أرزاقا سنية. ثم خطر له أن يحبسه خوفا منه. ولعل بعض أعداء الشيعة حرضوه على حبسه. لكنه لم يكن يستطيع ذلك الوفاء الذى بيده. فاستشار الفقهاء فى الأمان، فقال بعضهم الأمان الصحيح. فحاجه الرشيد. فقال الآخر وهو أبو البحترى القاضى هذا أمان منتقص من وجه كذا. فمزقه الرشيد وصمم على حبس الرجل. فدفعه إلى جعفر فحبسه وهو يرى أنه مظلوم لأنه جاء على الامان وقد نكث الرشيد الأمان. فحدثته نفسه أن يطلقه مما له من النفوذ والدالة، ولم يكن يظن الرشيد يسأل عنه. فبعث إلى يحيى المذكور من الحبس فخاطبه، فتوسل الرجل إليه وقال : «اتق الله فى أمرى ولا تتعرض أن يكون غدا خصمك محمد (صلعم) فوالله ما أحدثت حدثا ولا آويت محدثا» فرق له جعفر وقال : «اذهب حيث شئت من بلاد الله» . قال: «وكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ؟ » فوجه معه من أداه إلى مأمنه

ثم يتناول علاقة هارون الرشيد بجعفر فيقول: كان حساد جعفر يراقبون حركاته وخصوصا الفضل بن الربيع لأنه كان يرشح نفسه للوزارة بعد أبيه فسبقه إليها أولئك العجم. وكانت له عيون على جعفر فأخبروه بما فعله فرفع الخبر إلى الرشيد فأنكره، ولكنه انتهر الفضل وأظهر أن جعفر انما فعله بأمره ثم بعث إلى جعفر فدعاه إلى الطعام معه وجعل يلقمه ويحادثه، ثم سأله عن يحيى فقال «هو بحاله فى الحبس» فقال

: «بحياتي؟» ففطن جعفر فقال : «لا وحياتك». وقص عليه أمره وقال : «قد علمت أنه لا مكروه عنده» فقال الرشيد : «نعم ما فعلت ما غدوت ما في نفسي». وقد كظم غيظه وعزم على الإيقاع به من ذلك الحين. ولما قام جعفر عنه قال في نفسه: «قتلني الله أن لم أقتلك» ولكنه مكث يترقب الفرص ويدبر الحيل لما يعلمه من نفوذ البرامكة بما يبذلونه من الأموال للناس على اختلاف طبقاتهم حتى بني هاشم أنفسهم وأراد أن يغالطه لئلا ينتبه جعفر في نفس الرشيد عليه، فأظهر أنه يريد أن يوليه خراسان. فأخذ الخاتم ودفعه إلى أبيه يحيى وعقد له على خراسان وسجستان ثم عزله عنها بعد عشرين يوما، فهو أما ولاه أياها تمويها أو ولاه ثم خافه. وكان في جملة حساد البرامكة على بن عيسى بن ماهان، فسعى بموسى بن يحيى أخي جعفر واتهمه في أمر خراسان وأعلم الرشيد أنه يكاتبهم ليسير إليهم ويحرضهم على خلع الطاعة. فصدق الرشيد الوشاية فحبسه، ثم أطلقه، ولكنه تغير على البرامكة جميعا وظهر ذلك في بعض معاملاته. فكان يحيى بن خالد مثلا يدخل على الرشيد بغير اذن فعرض الرشيد في بعض حديثه استهجانه ذلك فكف يحيى عنه. وكان يحيى إذا دخل على الرشيد قام له الغلمان، فأوصى الرشيد مسرورا خادمه ألا يقوموا له، فشعر يحيى بهذا التغير، وتناقل الناس خبره ولبثوا يتوقعون شرا يصيب البرامكة وليس من يجرؤ على أخبارهم به، على أنهم كانوا يعرضون في أثناء الغناء بما يخافونه عليهم - ومن ذلك ما كان يغنيه ابن بكار أحيانا :

ما يريد النـــاس منـــــا
ما تنام النـــاس عنـــــا
انمـــــا همـــهـــم أن
يظهـــروا ما قـــد دفنـــا

وكان الرشيد يستعظم الأقدام على ذلك الأمر ويخاف أنصار البرامكة إذا هو فتك بهم، فأراد أن يستطلع أفكار خاصته في هذا الشأن ليرى وقعه في قلوبهم، والمغنون

أحسن وسيلة لذلك لمخالطتهم الناس فى حال سكرهم وطربهم، والسكر يبعث صاحبه على الأفشاء بما فى ضميره والتصريح بما يجول فى خاطره. فسأل الرشيد مغنيه اسحق الموصلى مرة: «بأى شئ يتحدث الناس؟» فقال : «يتحدثون بأنك تقبض على البرامكة وتولى الفضل بن الربيع الوزارة» فأظهر الرشيد الغضب وصاح به «ما أنت وذاك .. ويلك» فأمسك! وكان للرشيد عيون على البرامكة فى منازلهم ودواوينهم، يحصون عليهم أنفاسهم فلا يخلو أن تبدر منهم بادرة تلميحا أو تصريحا والوشاة يعظمونها له. وكان فى جملة جواسيس الرشيد خادمان خرزيان رباهما وأهداهما إلى جعفر، فكانا ينقلان إليه كل ما يدور فى مجالس جعفر يوميا. وكان لجعفر مجلس أنس فى منزله مرة فى الأسبوع يحضره أرباب الدولة وأهل الوجاهة من الفرس، يلبسون أثوابا لونها واحد يخلعها عليهم جعفر ويلبس هو مثلهم ففى أحد هذه المجالس دار الكلام على أبى مسلم وبطشه وكيف استطاع وحده أن ينقل الدولة الإسلامية من عائلة إلى عائلة، فقال جعفر: «لا يستغرب ذلك منه ولا فضل له به لأنه لم يدركه إلا بقتل ٦٠٠,٠٠٠ نفس سفك دماءهم صبرا، وانما الرجل من ينقل الدولة من قوم إلى قوم بغير سفك دم» وكان الغلامان الخرزيان يسمعان قوله، فنقلاه إلى الرشيد وافهماه أنه يعرض بنقل الدولة من العباسيين إلى الفرس أو العلويين فازداد خوف الرشيد منه فلما كانت السنة التى نكبوا فيها (سنة ١٨٧هـ) كان الرشيد قادما من الحج وقد صمم علي الفتك بجعفر، فاظهر رضاءه عنه وولاه كورة خراسان. أراد بذلك أن يطمئنه ليأخذ الخاتم منه بحجة الولاية، وخلع عليه وعقد له لواء وعسكرا بالنهروان. فضرب الناس مضاربهم هناك ومكثوا يتأهبون للسفر وفيهم نخبة أصحاب جعفر، وبقى هو ببغداد يتأهب للحاق بهم وكان صديق من الهاشميين غيور عليه اسمه اسماعيل بن يحيى قد علم ما فى نفس الرشيد على جعفر واهله فأراد أن يتوسط فى اصلاح ما بينهما، فجاء جعفر فى اثناء تأهبه للخروج إلى خراسان وخلا به وحادثه فى شئون شتى، حتى تطرق إلى الموضوع الذى جاء من أجله فقال له: «يا سيدى أنت عازم علي الخروج إلى

بلدة كثيرة الخير واسعة الأقطار عظيمة المملكة، فلو صيرت بعض ضياعك لولد أمير المؤمنين لكان أحظى لمنزلتك عنده». فلما سمع جعفر قوله غضب كأن ما يجول فى نفس الرشيد لم يخطر بباله وقال: «والله يا اسماعيل ما أكل الخبز ابن عمك إلا بفضلى، ولا قامت هذه الدولة إلا بنا أما كفى انى تركته لا يهتم بشئ من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته وقد ملأت بيوت أمواله مالا ومازلت للأمور الجليلة أدبرها حتى يمد عينه إلى ما أدخرته واخترته لولدى وعقبى بعدى وداخله حسد بنى هاشم وبغيهم ودب فيه الطمع؟ والله لئن سألنى شيئا من ذلك ليكونن وبالا عليه» كأنه يهدده بذهاب خراسان. فلما سمع اسماعيل تهديده ورأى غضبه خرج من عنده واحتجب عنه وعن الرشيد لأنه صار متهما عندهما فسمع ذلك الحديث أحد جواسيس الرشيد ونقله. فصمم على الفتك به ولعله كان ينوى القبض عليه وحبسه فقط. فلما بلغه هذا التهديد عزم على قتله وأكبر الأقدام على ذلك، فاستشار امرأته «زبيدة» وصرح بما يجول فى خاطره قائلا: «إنى أخاف أن تمكن هؤلاء من خراسان أن يخرج الأمر من يدى» فحرضته على سرعة الفتك به. ويقال أنها ذكرت له أمورا ارتكبها جعفر فى بيت الرشيد تتعلق بالعباسة أخته. فأغتنم الرشيد بعد جعفر عن رجاله ومريديه وهم فى عسكره بالنهروان وهو فى بغداد وبعث خادمه «مسرورا» ليأتيه برأسه، فذهب إليه وقتله كما هو مشهور ووجه الرشيد من أحاط بأبيه يحيى وسائر أولاده وبأخيه الفضل ليلا فحبسهم، وقبض على ما وجده لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك، وأرسل إلى سائر البلاد يقبض على أموالهم ووكلائهم ورقيقهم وأسبابهم ولم يتعرض لمحمد بن خالد لأنه كان من جملة الساعين بهم، واسند الوزارة من بعدهم إلى الفضل بن الربيع عدوهم، ثم ندم الرشيد علي قتل البرامكة، وكان إذا ذكرهم بكى، وقد أصاب جعفر من الرشيد كما أصاب بزرجمهر وزير كسرى ابرويز إذ اتهمه كسرى بالزندقة، فقبض عليه وقتله ثم ندم على قتله. فالرشيد فتك بالبرامكة لأنه خافهم علي سلطانه عملا بسياسة العباسيين فى تأييد دولتهم إذ اتهم جعفر وشك فيه فقتله وهى غير سياستهم فى معاملة رعاياهم وأنما

كانت مؤسسة غالبا على ما تقتضيه الشريعة الإسلامية ويستدعيه الحق، مع رفق وحلم وبذل ومحاسنة ولا سيما الرشيد، فقد كان إذا وعظته بكى، وإذا استعطفته عفا، وإذا استجديته سخا، حتى جرى خيره مجرى الأمثال أما العلويون فكان لا يخاف الله فيهم ولا من يدعو إليهم أو ينصرهم ولكن لماذا قتل الرشيد وزيره الأكبر جعفر البرامكى؟ سؤال اختلفت حوله آراء المؤرخين، وتضاربت أقوالهم فى تفسيره، ولكن الباحث والمؤرخ الكبير محمد فريد وجدى يحاول تفسير هذا اللغز فيقول:(١) « دخلت فارس فى حوزة المسلمين على عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب، وكانت على المجوسية التى اساسها عبادة النار. وكان من أثر اختلاط اهلها بالمسلمين أن انتشر فيهم الإسلام، وشاعت بينهم العربية، فلم يمض عليهم بضع عشرات من السنين حتى اصبحت بلادهم من معاقل الدين الحصينة. وكان هذا من أكبر العوامل فى وصول الدولة الإسلامية، بعد دور فتوحاتهم العظيمة، إلى الزعامة العلمية وهذا سهل التفسير، فإن الفرس كانوا من الأمم التى بلغت فى العلم شأوا بعيدا قبل ظهور الإسلام، فلما قبلوا هذا الدين شعارا لهم، وفيه من الحث على العلم ما فيه، شغفوا به أيما شغف لمناسبته لميولهم المدنية. وكان فى تقاليد المسلمين وقادتهم من أكبار العلماء والأقبال عليهم أكبر مشجع لهم على البحر فى علوم الدين والدنيا معا، فلم يمض عليهم كبير الزمان حتى صار أعلم وأكبر أقطابهما منهم .

ولما دار الزمان وتطلع الناس لتغيير الأسرة المالكة تحت ضغط الارجافات التى قام بها الدعاة لال البيت النبوى والعباسيين ، كان زعيم الاخيرين فى خراسان أحد أبناء فارس أبا مسلم الخراسانى، فخرج على مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أميه، ومازال يقاتله ويطارده حتى قتل الخليفة فى آخر معاركه بالفيوم، وأسند أبو مسلم الخلافة إلى أبى العباس السفاح سنة ١٣٢هـ .

كان فى خراسان فى ذلك العهد رجل من نخبة الفرس يقال له برمك دخل فى

(١) الهلال/ ١٩٤٠/ ص ١١٧٥

الاسلام سنة ١٩١هـ ولما دالت الدولة لأبى العباس السفاح التحق بخدمته، فلفت الانظار اليه بعلمه وأدبه وكفايته، وكان له ولد اسمه خالد بن برمك يضارعه فى كل مزاياه، التحق كأبيه بخدمة أبى العباس ، فما زال يرقيه حتى أسند اليه وزارته فقام بها خير قيام .

ولما توفى أبو العباس وخلفه أخوه المنصور أقر خالدا فى وزارته حين لم يجد من يماثله فصاحة ونبلا وسداد رأى وصراحة .

كان لخالد بن برمك ولد يقال له يحيى بن خالد، رآه المهدى بن المنصور فأعجب به وأسند اليه الوزارة ، فقام بمهامها على أكمل وجه، ولم يدع ثغرة فى الادارة العامة إلا سدها بحكمته وثقوب نظره. وحدث أنه من فرط اعجاب المهدى بأخلاق وزيره وبآدابه وفصاحة لسانه وجه اليه مهمة القيام على تربية أعز أبنائه اليه هارون الرشيد، فلم يأل يحيى جهدا فى اداء ما وجب عليه نحوه من حسن العناية، وسداد الرعاية، حتى شغف به هارون حبا، وأكن له فى صميم قلبه احتراما وتبجيلا حتى كان لا يناديه إلا بيا أبتى .

ثم يستطرد محمد فريد وجدى فيتناول زوال دولة البرامكة فيقول :

ولما تولى هارون الرشيد الخلافة سنة ١٧٠ كان يحيى بن خالد عضده الاقوى فى تدبير الأمور، واليه يعود الازدهار العظيم الذى بلغته الدولة العباسية على عهده فانه باعد بين حدودها ، ووفر من ثروتها وأصلح من ادارتها ، ووسع من عمرانها ، وجعل أيام الرشيد عهدا ذهبيا ضربت به الامثال فى العظمة والابهة فى جميع أقطار العالم .

كان ليحيى بن خالد اربعة أولاد : الفضل وجعفر ومحمد وموسى، وكلهم على غرار واحد من الفضل والعلم والفصاحة والجود ، فرأى الرشيد أن يسند إلى أولهم وزارته فقام على سنة آبائه من قبله، وبلغ بالخلال المأثورة عنهم الى الاوج الاعلى .

ولكن الرشيد كان شديد الميل إلى أخيه جعفر للباقته وحسن مداخله ، ومخارجه ، ولطف شمائله ، فأسند اليه الوزارة وعزل أخاه عنها، وكان هارون مولعا بمجالسة

جعفر الى حد أنه كان لا يصبر عنه لا في جده ولا في هزله . فما راع الناس صبيحة يوم إلا أن سمعوا بأن الرشيد قتل جعفرا وقبض على أبيه واخوته وجميع قرابته وقذف بهم في ظلمات السجون، وصادر جميع ما كان لهم . فكان ذلك من أقسى ما طرق اسماع الناس، ومن أشد ما حزبهم وحزنهم ، فإن البرامكة من الاجواد الذين تحدثت بعطاياهم الركبان ، ومن ذوى المروءات الذين لم يسمع بمثلهم بين الافذاذ، أسروا قلوب الناس بما أسدوه اليهم من عرف، وما اصطنعوا عندهم من صنائع ، فكانت آمال الناس محصورة فيهم ، وقلوبهم متوجهة اليهم، ولكن مقام الخلافة اذ ذاك كان فوق كل مناقشة فاذا أبرمت امرا وجب الرضاء به وان شذ عن كل قياس . فقابلت بغداد هذا الخبر بهدوء المكموده ، وسكون المكلوده . ولكن هذا لم يمنع الناس أن يتساءلوا عن سبب هذه النكبة فنشأت أربع روايات :

أولا : أن الرشيد كانت له أخت تدعى «ميمونة» يحب أن تكون في مجلسه مع جعفر ، فرأى أن يعقد لهما زواجا ليحل لجعفر أن يراها دون أن تكون له زوجة فيعلم الرشيد انها ولدت منه ثلاثة أولاد وهي حبلى في الرابع ،فاستشاط من ذلك غضبا وأمر بقتله والتنكيل بأسرته .

ثانيا : أنه بلغ الرشيد أن آل برمك لم يسلموا إلا ظاهرا وأنهم ظلوا على مجوسيتهم سرا . ففعل بجعفر وبهم ما فعل .

ثالثاً : أنه وقعت إلى الرشيد قصيدة غفل من التوقيع جاء منها :

هذا ابن يحى قد غدا مالكـــــا
مثـــلك مـــا بينكـــما حـــد
أمـــرك مـــرود الـــى أمـــــره
وأمـــره ليـــــس لــــــه رد

فلما وقف عليها الرشيد ، وكان يشعر بثقل وطأة جعفر عليه من قبل ، أوقع به .

رابعا : أن الرشيد رأى الثروة الطائلة التى جمعها البرامكة ، ومنافستهم الخلافة

فى الابهة والعظمة ، وأنس ميل النفوس اليهم، فخشى أن يفتن الناس بهم فقضى عليهم .

هذه روايات أربع أوردها جرجى زيدان ثم نقدها للوقوف على حقيقة السبب فى الايقاع بالبرامكة!

يقول جرجى زيدان :

«فأما السبب الأول فليس بمعقول ، فان الرشيد لم يصل من قلة التبصر، وعدم النخوة إلى حد أن يعرض أخته لأجنبى فى مجالس لهو وشرب وغناء، وهما فى ميعة الصبا .

لو كان السبب هو هذا لما كان هنالك من حاجة الى احاطته بهذه الاسوار من الكتمان ، بل لعرف ولم يحصل فيه خلاف. فإن مجرد قتل ميمونة أخته وأولادها كان يفصح الخبر الى حد بعيدة وما كانت تضطر عليه أخته أن تقول له كما حكاه ابن بدرون : «يا سيدى..

ما رأيت لك يوم سرور تام منذ قتلت جعفرا فلأى شىء قتلته ؟».

فاجابها هارون بقوله : «يا حياتى لو علمت أن قميصى يعلم السبب فى ذلك لمزقته

فهل كان يخفى على مثل علية وهى من أعظم نساء الأسرة المالكة ما حل بأختها ميمونة وبأولادها؟

الناس مغرمون بسماع الغرائب ورواياتها ، وهذا مجال بجد فيه الخراصون مكانا رحبا لاشباع نهمتهم فى الاختلاق، فأفرغوا ما فى جعابهم حول هذه المسألة .

وأما الرواية الثانية فغير مقبولة ، لأنه ليس يحل للمسلمين قتل المجوس، وقد عاشوا معهم جنبا الى جنب أجيالا ، وعاملوهم بالحسنى كما عاملوا أهل الكتاب ، فكيف استحل الرشيد قتل جعفر بدون تحقيق ، وإذا كانت المجوسية هى سبب القتل فلم أبقى على أبيه واخوته واقاربه؟ ولم كتم الرشيد ذلك وله شبه العذر فيه ؟

والرواية الثالثة لا يمكن اثباتها ، ولو صحت لكان يجزى فيها العزل ومصادرة

الأموال كما كان ذلك دين الملكين فى ذلك العصر .

بقيت الرواية الرابعة وهى اوجه الروايات كلها، وأشبه بأمثالها من مآسى العصر الكبيرة فى التاريخ ، ولكنها مع ذلك لا تعلل إحاطتها بالتكتم الشديد، فإن التنكيل فى هذه الحالة يجد مبررا له فى نظر أركان الدولة. وقد قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراسانى داعية الدولة العباسية لهذا السبب ولم يحط ذلك بشيء من الكتمان، وأتته عليه تهانيء كثيرة ولا تفسر أيضا قتل الرشيد جعفرا وحده ، واكتفاء بحبس أبيه واخوته وقرابته ، ولم يعلم عن جعفر أكثر من التوسع فى الابهة والتبسط فى السلطان.

ثم يذكرجرجى زيدان رأيا جديدا فى سبب نكبة البرامكة فيقول:

«وقد كنت رجحت هذه الرواية فى كتابة سلفت لى منذ سنين ، ولكنى أراها الآن لا تفسر جميع الغوامض المحيطة بهذه المسألة وأرانى أميل إلى تخيل سبب آخر فأقول :

المعروف عن الرشيد أنه مع ما اشتهر به من العقل وحب الاصلاح والميل إلى العلم والعلماء ، كان شديد الجنوح الى القصف واللهو. فكانت له مجالس مع ندمائه، وفى مقدمتهم جعفر، يتعاطون فيها الراح، وتغنيهم القيان الجميلات ، والراح متى لعبت بالعقول طاحت بالتصون والوقار، وذهبت بالحشمة والاعتبار ، فلم يبال الواقع تحت تاثيرها أن يعربد على أعظم الناس قدرا، ولم يكترث لما فعل ، فلا يبعد أن يكون بدر من جعفر وهو فى غيابة السكر ما اعتبره الرشيد مهينا" لكرامته ، مزريا بمكانته ، فحكم عليه بما حكم انتصارا لنفسه .

ليس هذا ببدع فقد جاء فى سيرة المأمون أن أحد ندمائه عربد عليه فى مجلس الشراب، فلما أفاق ذكر ما كان منه ، فقبع فى كسر بيته وانقطع عن المأمون ، فلما تفقده وعلم السبب فى تخلفه ارسل اليه يهون عليه ويأمره أن لا ينقطع عن مجلسه وقد كان المأمون كلفا بالعفو حتى قال : لا أظن أن الله يثيبنى على العفو لأنى أحبه وأنعم به ..

ويجوز أيضا أن يكون قد بدر من جعفر وهو نشوان ما يدل على ما كان يبطنه

للرشيد من الاحتقار والاستخفاف ، والخمر تثير الكوامن وتهتك السرائر، فأدرك الرشيد ما يدرك كل ملك عظيم من وجوب الانتصاف فأمر بقتله .

كذلك يجوز أن يكون حدث من جعفر وهو تحت سلطان الصهباء ما تأباه نخوة الرشيد من مغازلة قيانه، موجها اليهن ما اعتبره الرشيد غاية فى الوقاحة فأمر فيه بما أمر .

كل هذا نرجحه وهو يحل جميع الغوامض المحيطة بهذا الموضوع .

فيعقل أن الرشيد لا يبوح بالسبب فى قتله إذ يكبر عليه أن يقول أن جعفرا عربد عليه فى مجلس الشراب أو أهانه فى شرفه أو نخوته فمثل هذا يحط من كرامته وكرامة الخلافة .

ويعقل كذلك أن ينقم على أبيه واخوته وجميع قرابته ، وأن يصادر أموالهم ، فقد كان هذا ديدن العياهل فى ذلك العصر، إذا سخطوا على وزير قتلوه وصادروا أمواله ، وأهانوا ذويه، حتى أن أكثر من تولوا الوزارة فى تلك الاجيال ماتوا قتلى أو فى أعماق السجون، ومن نجا منهم حيا أو طليقا أعتبر من الأعاجيب .

وكانت هناك مواقف مأساوية بالغة التأثير فى حكايات الرشيد مع البرامكة ، ومن ذلك قصة مقتل جعفر بن يحيى البرمكى ، وهى حكاية نرويها لنستخلص منها مغزاها العميق المؤثر ..

لما أراد هارون الرشيد الايقاع بوزيره الاكبر جعفر بن يحيى البرمكى بعث اليه «ياسر» خادمه الى منزله ليلا. وكان جعفر جالساً مع صحبه يلهون ويطربون. وابن بكار يغنيهم ..

فقال : الرشيد لياسر : «انى أناديك لأمر لم أر محمدا ولا القاسم له اهلا، ورأيتك به مستقلا ناهضا ، فحقق ظنى، واحذر أن تخالفنى» فقال ياسر : «والله يا أمير المؤمنين لو أمرتنى أن أدخل السيف فى بطنى ، وأخرجه من ظهرى لفعلت ، فمر بأمرك، فانى اليه مسرع» .

فقال الرشيد : «ألست تعرف جعفر بن يحيى!» .

– وهل أعرف سواه ، أو ينكر مثل جعفر .

– اذهب الساعة اليه ، فائتنى برأسه، على أية حالة تجد !

فارتج على ياسر ، ووقف لا يحير جوابا ، وأخذته رعدة.. ثم مضى حتى دخل على جعفر فى مجلس لهوه ، فقال له : «أن أمير المؤمنين قد أمرنى بكيت وكيت» .

فقال جعفر : «أن أمير المؤمنين يمازحنى بأصناف من المزاح، وأحسب أن هذا صنف منه..!» .

– والله ما افتقدت من عقله شيئا ولا ظننته شرب خمرا فى يومه .

– لكن لى عليك حقوقا، لم تجد لها مكافأة إلا هذا الوقت .

– أعلم ذلك ، وتجدنى إلى الوفاء سريعا إلا فيما خالف أمير المؤمنين .

– إرجع اليه فأعلمه أنك نفذتَ ما أمرك به ، فإن أصبح نادما كانت حياتى على يديك. جارية ، وكانت لك عندى نعمة مجددة ، وإن أصبح على مثل هذا الرأى نفذت ما أمرك به .

– ليس إلى ذلك سبيل .

– إذن أذهب معك الى مضرب أمير المؤمنين حيث أقف بحيث أسمع كلامه ومراجعته إياك ومضيا إلى مضرب الرشيد ، فدخل إليه ياسر ، وقال : «أخذت رأسه يا أمير المؤمنين ..!» .

– أيتنى بها، وإلا والله قتلتك قبله . فخرج ، فقال لجعفر : «أسمعت الحديث ؟!» .

– نعم . فشأنك ، وما أمرت به .

وأخرج جعفر من كمه منديلا صغيرا عصب به عينيه ، ومد رقبته ، فضربها ياسر وعمره ٣٧ عاما وأدخل الرأس على الرشيد، رآها بين يديه، قال : «يا ياسر ادع لى فلاناً» ، فحضر ، فقال له : «أضرب عنق ياسر ، فأنى لا أقدر أن أنظر قاتل جعفر..!».

والحكاية الثانية كانت بين أم جعفر وهارون الرشيد الذى يمثل موقفا مؤثرا وصراعا

بين عاطفتين..

كانت فاطمة أم جعفر بن يحيى أرضعت الرشيد مع جعفر لأنه كان ربى فى حجرها وغذى بلبنها لأن أمه ماتت عن مهده . فكان الرشيد يشاورها ليكرمها وليتبرك برأيها ، وكان آلى وهو فى كفالتها ألا يحجها ولا استشفعته لأحد إلاشفعها. وآلت عليه أم جعفر أن لا دخلت عليه إلا مأذونا لها، ولا شفعت لأحد مقترف ذنبا. فكم أسير فكت، ومبهم عنده فتحت، ومستغلق منه فرجت ..

وتغير الرشيد على البرامكة فقتل جعفرا وسجن يحيى والفضل وسجن معهما أقاربهما واستصفى ضياعهم وأموالهم . ثم احتجب عن الناس . فسعت اليه أم جعفر وطلبت الاذن عليه ولجأت بوسائلها اليه. فلم يأذن لها ولا أمر بشىء فيها . فلما طال ذلك بها خرجت كاشفة وجهها ، واضعة لثامها، محتفية (حافية)فى مشيها، حتى صارت بباب قصر الرشيد .

فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب فقال : ظئر أمير المؤمنين بالباب فى حالة تقلب شماتة الحاسد الى شفقة أم الواحد .. فقال الرشيد : ويحك يا عبد الملك ! أوساعية ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين حافية.. قال : أدخلها يا عبد الملك ، فرب كبد غذتها ، وكربة فرجتها، وعورة سترتها ..

ودخلت . فلما نظر الرشيد إليها داخلة محتفية قام محتفيا حتى تلقاها بين عمد المسجد وأكب على تقبيل رأسها.. ثم أجلسها معه فقالت: يا أمير المؤمنين.. أيعدو علينا الزمان، ويجفونا خوفاً لك الأعوان، ويحردك بنا البهتان، وقد ربيتك فى حجرى، وأخذت برضاعك الأمان من عدوى ودهرى! فقال لها : وماذا يا أم الرشيد؟ قالت: ظئرك يحيى، وأبوك ولا أصفه بأكثر مما عرفه أمير المؤمنين من نصيحته له وإشفاقه عليه:

فقال لها : يا أم الرشيد.. أمر سبق وقضاء حم وغضب من الله نفذ..

فقالت : يا أمير المؤمنين.. «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»

فقال: صدقت. فهذا مما لم يمحه الله..

فقالت : الغيب محجوب عن النبيين، فكيف عنك يا أمير المؤمنين!

فأطرق الرشيد مليا ثم قال:

وإذا المنيـــة أنشبت أظفارهـــــا

ألفيـت كـل تمـيمـــة لاتنفـــع

فقالت بغير روية: ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين. وقد قال الأول:

وإذا افتقـرت إلى الذخائر لم تجـــد

ذخـرا يكـون كصـــالح الأعـمال

هـذا بعد قول الله عز وجل: «والكاظمـين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين»

فأطرق الرشيد ثانية ثم قال : يا أم الرشيد.. أقول:

إذا انصرفت نفسى عن الشئ لم تكد إليه بوجه آخر الدهر تقبل

فقالت : يا أمير المؤمنين.. وهو يقول أيضا:

ستقطع فى الدنيا - إذا ما قطعتنى - يمينك فانظر أى كف تبدل

فقال هارون : رضيت... فقالت: هبه لى يا أمير المؤمنين، قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من ترك شيئا لله لم يوجده الله لفقده»..

فأكب مليا ثم رفع رأسه وقال: لله الأمر من قبل ومن بعد.. فقالت: يا أمير المؤمنين «ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم».. واذكر يا أمير المؤمنين أليتك ما استشفعت إلا شفعتنى.. فقال : وأذكرى يا أم الرشيد أليتك أن لا شفعت لمقترف ذنبا

فلما رأته قد صرح بمنعها ولاذ عن مطلبها، أخرجت حقا من زمرده خضراء فوضعته بين يديه، فقال الرشيد : ما هذا؟ ففتحته وأخرجت منه نوائبه وثناياه وقد غمست جميع ذلك فى المسك.. قالت: يا أمير المؤمنين.. أستشفع إليك، وأستعين بالله عليك وبما صار معى من كريم جسدك وطيب جوارحك أن تشفعنى فى عبدك يحيى

فأخذ هرون ذلك ولثمه، ثم بكى طويلا.. فأبكى أهل المجلس. وذهب البشير إلى يحيى وهو لا يظن إلا أن البكاء رحمة له ورجوع عنه. فلما أفاق رمى جميع ذلك فى الحق وقال لها: لحسن ما حفظت الوديعة فقالت: وأهل للمكافأة أنت ياأمير المؤمنين.

فسكت وأقفل الحق ودفعه إليها وقال: «أن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها» فقالت: والله يقول: «وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل». ويقول: «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم» ثم قال: وما ذاك يا أم الرشيد؟ قالت أو ما أقسمت ألا تحجبنى ولا تمتهنى؟

فقال : أحب يا أم الرشيد أن تبيعينى ذلك محكمة فيه.. فقالت: أنصفت يا أمير المؤمنين، وقد فعلت غير مستقيلة لك ولا راجعة عنك... فقال : بكم؟ قالت: برضاك عمن لم يسخطك فقال : يا أم الرشيد .. أما لى من الحق عليك مثل الذى له؟ قالت : بلى ! أنت أعز علىّ وهو أحب إلىّ.. قال: فتحكمى فى تمنية بغيره، فقالت: قد وهبتكه وجعلتك فى حل منه

وقامت عنه غضبى. وبقى مبهوتا ما يحير لفظه..

ولكن أحمد أمين يذكر سببا اخر عن سر مأساة البرامكة وخطة هارون الرشيد فى القضاء عليهم، وكيف مهد لها بأساليب سياسية ماكرة عن طريق بث الاشاعات التى تقضى على سمعتهم عند الرعية، وتجعلهم يتقبلون الخلاص منهم، فيقول:[1] «فكر الرشيد طويلا فى الإيقاع بالبرامكة لعظم مكانتهم، وخوفه من الثورة عليه من أجلهم، فكان مما اختاط أن يشيع بين الناس كفرهم وزندقتهم، وأنهم يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر وأن عندهم بعض بقايا من الآثار الوثنية ونحو ذلك حتى تكرههم العامة، فأوعز مثلا إلى الأصمعى أن يقول فيهم ما يحط من شأنهم كالذى قال:

إذا ذكر الشـــرك فى مجـــــلس

أضاءت وجوه بنـــــى برمـــــك

---

(١) احمد أمين / هارون الرشيد / ص ١٢٩ .

ولـــو تلـيت بيــنهــــــــم آيــــــة
أتوا بالأحاديـــث عن مـــــــزدك

«وأشـاع فى الناس أنهم زنادقة حتى أن يحيى بن خالد لما نقل من سجن إلى سجن، أعتدى عليه رجل وأظهر له الأحتقار، فخاف يحيى أن يكون قد ظلمه، أو بخل عليه، فبعث إليه من يسأله، فلما علم أنه يرميه بالزندقة اطمأن إلى ذلك لأنه علم أنها دسيسة عليه، وبذلك وأمثاله أوجد الرشيد حول البرامكة جواسيس.

«وربما كان من ذلك ما أشاعه عن علاقة جعفر بالعباسة، ووعد جعفر للرشيد، بأن لايقربها لأنه إلى ذلك العهد كانت الغيرة فاشية بين الناس، فلما نكل بهم الرشيد لم يثر الناس وقابلوا الأمر بهدوء»

«ولولا نشاط الدعايةوحرب الأشاعات ضدهم لثار الناس على الرشيد وفتكوا به إن استطاعوا»

«وقد أحكم الرشيد فعلته ونشر الجواسيس على من يمدحون البرامكة ويبكون عليهم، ويقطع رأس من يبلغه شئ عنه، حتى خشى الناس، وأنكروا الصنيع أى أن أحمد أمين يرى أن السبب الأكبر فى نكبة البرامكة هو غيرة الرشيد منهم، ورغبته فى استرجاع سلطانهم وأموالهم.

وعلى الجملة كانت نكبة البرامكة نقطة سوداء فى تاريخ الرشيد، فقد أعلى البرامكة، ووقفوا بجانبه وساندوا دولته، ثم فتك بهم بطريقة غادرة مريعة.

وقد اشتد الرشيد على البرامكة حتى بعد القضاء عليهم شدة ليس فيها تسامح ولا رحمة، فقد نهى عن ذكر سيرتهم وعن وقوف الشعراء ببابهم، أو مقابرهم وعن رِثائهم، خوفا منهم على عرشه فى حياتهم أو بعد مماتهم!

الفصل الثانى عشر

هل كان سبب انحطاط الدولة العباسية ؟ !

هل كان سبب انحطاط الدولة العباسية

ويرى بعض الباحثين أن عصر الرشيد كان من أزهى العصور الإسلامية ، وينفون عن الرشيد أنه مجرد خليفة ماجن مستهتر ، بل يعدونه من أفضل خلفاء بنى العباس خلقا وخلقا، وعلما وأدبا، وفصاحة ورجاحة، يقول محمد كرد على : عن الرشيد : (١)

أخذ العلم والأدب عن شيوخ مشهورين، وتمت ثقافته وهو يتمرس بالسياسة والادارة . تولى وهو لما يزل يافعاً الولايات الجليلة والقيادات الصعبة، فوفق ونصر، لما فطر عليه من الحزم ، وبعد النظر ، والمعرفة بما تنطوى عليه نفوس الناس وما يصلحها ويشقيها .

تولى الشام والفتن يندلع لهيبها فقضى عليها على أكمل وجه وأعاد اليها الطمأنينة والأمن وغزا الروم وهو ولى العهد أيضاً ، فوصل إلى أسكدار من ضواحى القسطنطينية وتغلغل فى بلادهم، وأمعن فى كشف قواتهم، وغامض أسرارهم فلما وسدت اليه الخلافة عاد فغزاهم وأخذ منهم هرقلية، فاضطر ملكهم أن يبعث اليه بالجزية عن رعيته ، وعن رأسه ورأس ولده وبطارقته ، واشترط عليه أن لا يعمر هرقلية، وأن يكون الحمل فى السنة ثلاثمائة ألف دينار . وأكد المؤرخون أن لم يكن فى عمله هذا ظالما للروم، بل كان صاحبهم نقفور هو الظالم لنفسه ولقومه، لنقضه العهد الذى كان أعطاه فجازاه الرشيد على عمله .

ولما أشجى الرشيد الروم وقمعهم سمى «جبار بنى العباس»، وكان من أكبر همه أن لا يدع الروم يتنفسون الصعداء، وأغزى ابنه القاسم بلاد الروم مرة ، فقتل منهم خمسين ألفاً، وأخذ خمسة آلاف دابة بسروج الفضة ولجمها، وأقام من الصناعة أى من عمل السفن الحربية ما لم يقم مثله قبله، وقسم الأموال فى الثغور والسواحل ، واختزل

١- محمد كرد على / جبار بنى العباس / الهلال اغسطس ١٩٤٠ .

الثغور من الجزيرة وقنسرين وسماها العواصم وكان جيشه بتدريبه وترتيبه أقوى جيش عهد للعباسيين، وهو تحت الطلب أبداً فالرشيد الذى كان هذا بعض هداه: يدير ملكاً طوله بضعة أشهر وعرضه كذلك، ويدبر أمة عظيمة مختلفة العناصر واللغات، منوعة المذاهب والغايات ، وينظر فى كل شيء بنفسه من أمور الملك – يستحيل أن يكون كما صورته كتب المسامرات والمجون ، وكتب المنحرفين عن أهل السنة والجماعة، وكانوا منذ أول أيامهم ، ولا أرب لهم إلا نزع الملك من بنى العباس وبنى أمية، وما رضوا حتى عن الراشدين ولا عن غيرهم .

حاز الرشيد فى الغريب شهرة دونها كل شهرة كتبت لملك من ملوك العرب، ولا سيما بعد أن نقلت حكايات الف ليلة وليلة إلى اللغات الاوربية ، ومعلوم أن ذكره ورد فى هذه القصص مثالا على سعة العيش، ونضرة الحياة ، وانبساط العمران فى بغداد، فكان من ذلك أن اشتهر اسم الرشيد بما فى تلك القصة من الغرائب المدهشة، والمبالغات الشرقية، النابية عن طور العقل، البعيد عن خيال واضعيها وغريب ألا تخلده أعماله بين قومه وغير قومه، كما خلدته تخريفات وتقولات!

وما أشتهر من طريق السياسة والادارة ، ولا عرف ببلاغته وسعة علمه . ولا يكرمه جميل عاطفته، بل أحاطت به المهازل والملاهى ، والنعيم والزهو .

وبدأت شهرته فى الغرب منذ بعث وفدا الى شارلمان ملك فرنسا وجرمانيا وايطاليا، وكان يريد تقوية صلاته السياسية بأعظم ملوك عصره، ليستعين به على الاخذ خلق دولة الأندلس العربية، فينال من بنى أمية كما ناله منهم جده المنصور ، ثم ظهر عجزه عن القضاء على دولتهم . ولكن ملوك الافرنج يومئذ كانوا من الضعف بحيث ما استطاعوا على ما يظهر أن ينفذوا خطط الرشيد ويبيدوا مملكة قوية فتية .

هذه الاخبار اغفلها مؤرخو العرب ، لأنها كانت بالطبع تجرى تحت ستار التكتم الشديد، إلا أن بعض مؤرخى الغرب أشاروا اليها فى كتاباتهم .

ويتهم المستشرق سترستين هارون الرشيد بأنه كان مبدأ انحطاط الدولة العباسية ،

ولكن محمد كرد على ينفي عن الرشيد ذلك ويقول :

كان عصر الرشيد وابنه المأمون أرقى عصور بنى العباس، ومن اسعدها على الناس، دعاه المؤرخون من الافرنج بالعصر الذهبى ، ولعل السيد سترستين استنتج ذلك من كون الرشيد عهد لابراهيم بن الأغلب بأمارة افريقية أى تونس مقابل أربعين الف دينار كل سنة ، وينزل عن المعونة التى كان سلفه يأخذها من مال مصر، وقدرها مائة الف دينار، وأن تجعل الامارة وراثية تتناقل فى أعقاب ذاك الأمير .

وبهذا أصبحت أفريقية مستقلة فى داخليتها ، مرتبطة بالخلافة العباسية فى أمورها الخطيرة فقط، لا تتعدى صلتها بالحضرة حد الاستشارة، وانسلخت بهذه الطريقة ممالك كان بعضها يخضع بالاسم للعباسيين .

وكل من أمعن فى تحليل هذه القضية. أى منح الرشيد استقلالا اداريا على قاعدة اللامركزية لابن الاغلب ، ليكون حاجزا بينه وبين أكبر أعداء دولته خليفة الاندلس الأموى ، يدرك أن القصد من ذلك أن يتفرغ الخليفة من مسائل افريقيا الى مشاكله العظيمة فى الشرق . على أن ادارة العباسيين ومن قبلهم الأمويون والراشدون لم تكن فى لحمتها وسداها اللامركزية .

ومحال أن تدار مثل هذه الممالك العظيمة بغير هذا الاسلوب لتنائى الاقطار ، ولأن أهل كل بلد يحرصون على الأغلب أن تصرف أموالهم فى أرضهم ، وأن تكون أقضيتهم واختلافاتهم سريعة التنفيذ ، والحاضر أبداً يرى مالا يراه الغائب .

ولو لم يكن الاغالبة على شىء من الاستقلال الذاتى ما تيسر لهم أن يقاتلوا الأباضية الخوارج أصحاب الدولة الرسمية باهريت فى الجزائر، ولا أن يقفوا بالمرصاد لبنى إدريس بن عبد الله الظاهر.

ملكهم يومئذ فى طنجة من بلاد المغرب الاقصى ولا أن يفتحوا صقلية ومالطة وجزائر البحر إلا أن يعمروا ما فتحوا عمرانا لا يقل عن عمران الامويين فى أرض الاندلس .

وعلل العلامة فازليف عمل الرشيد بمنح هذا الاستقلال النسبى تعليلا جميلا قال : إنه لما انتدب اعظم قواده هرثمة بن أعين لاعادة الامن الى نصابه فى أفريقية نصب ابراهيم بن الأغلب الخليفة عليها، فرأى هذا بعد عودة هرثمة أن الاضطرابات عادت الى سابق حالها، فكتب إلى الخليفة يقول إنه يرضى بأداء خراج معين على أن تكون البلاد طعمة له، وإقطاعا لأخلافه من بعد ، ولما كان الرشيد مشغول البال بقتال الخزر وباطفاء نار ثورة عظيمة فى بلاد فارس ، قبل هذا الاقتراح مضطراً .

هذا ما قاله ، وليس من الحكمة فى شيء أن يحارب الخليفة عدة حروب داخلية فى آن واحد ، ولا أن يوزع قواه فى إخضاع شعوب فى القاصية، إن سهل عليه أمرهم لا يسهل على أعقابه ، وقد رأى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الأموى أن يجلى المسلمين من الاندلس ويكتفى بما فتح الله على الغرب من بلاد الشرق، ويحل مشاكله مع دولة الروم، ليصرف وكده فى عمران مملكة عظيمة. وهذا ما أدركه الرشيد على ما يظهر بالعمل، ورام انقاذ ملكه من تبعاته فى المستقبل .

قال ابن الطقطقى : «كانت دولة الرشيد من أحسن الدول وأكثرها وقارا ورونقا وخيرا وأوسعها رقعة مملكة : جبى الرشيد معظم الدنيا ، وكان أحد عماله صاحب مصر» وقال غيره أن الناس سموا ايامه ايام العروس لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها، وأنه خلف من المال «مالم يخلف أحد مثله منذ كانت الدنيا» .. خلف من الاثاث والعين والورق والجوهر والدواب سوى الضياع والعقار ما قيمته مائة ألف وخمسة وعشرن ألف دينار، هذا مع أنه لم ير خليفة قبله اعطى منه للمال ، وكان لا يضيع عنده احسان محسن، ولا يؤخر ذلك، إلى ما ضارع ذلك من الصفات الطيبة .

خلفاء بنى العباس فى العمران ثمانية وثلاثون خليفة ، لم يعرف لواحد منهم قبر سوى قبرى الرشيد والمأمون ، وقبر جبار بنى العباس كان فى طوس. وقبر عالم بنى العباس كان فى طرطوس ، وما أعز هذه السنين على قلوب العارفين .

الفصل الثالث عشر

نهاية هارون الرشيد

نهاية هارون الرشيد !

بعد كل هذه الحياة الحافلة التى عاشها هارون الرشيد ،بين أبهة الملك ، وسطوة الحكم وتقلبه بين الوان الترف والنعيم ، وما صاحب حياته من خير وشر، ومد وجزر ، جاءت النهاية ..

فكيف كانت أيامه الأخيرة ؟

يروى لنا الأديب الكبير طاهر الطناحى قصة أيام هارون الرشيد الأخيرة ، ومعاناته مع المرض ، وسر دموعه وهو على فراش المرض والموت فيقول : [1]

«اشتدت العلة بالرشيد فى مدينة «طوس» بخراسان ، وزايلته قوته، ودب اليأس الى نفسه وعاد وجهه المملوء بهجة ونضرة شاحبا كئيبا، وجسمه الضخم المشوق ، ضعيفا هزيلا، وقد مدوا له سريرا فى بستان الدار، ووقف طبيبه جبرائيل بن بختيشوع بجواره حائرا محزونا اعجزه القضاء عن التغلب على الداء ، وأفقده الخطر كل سبيل الى الرجاء، وشمل الاسى نفوس اصحابه ، وسرى الحزن العميق بين رجال دولته، وتجهمت، وجوه الجميع، ولم يبق لهم من الأمل فى شفاء أمير المؤمنين إلا خيط دقيق رفيق ، ودوا لو نفخت فيه القدرة ، وانبعثت فيه القوة ببشرى الطبيب الفارسى الذى استنجد به ابن بخيتشوع ، وبعث اليه بوصف داء الامير مصحوبا بأثر من آثاره ففحصه الطبيب ثم قال :

عرفوا صاحب هذا الداء أنه هالك ، فليوص، فانه لا براء له منه وعلم الرشيد ما قاله الطبيب الفارسى ، فتيأس وأنشد :

ان الطبيـــب بطبــــــه ودوائــــــــــه

لا يستطيع دفاع محــــــــذور أتــــى

١- طاهر الطناحى / الساعات الأخيرة / دار الهلال .

ما للطبيب يمـــــوت بالـمـــــاء الـذى
قد كان يبـرىء مثله فيـما مضـــــى

ووثب متحامـلا ، يقوم ويسقط ، وقد ضاق بالحياة، وضاقت هى عن شفائه، واستسلم للفناء ، وأسلمه الفناء الى الضعف والتهالك . وأشفق رجاله فاجتمعوا يحملونه ، فنظر الى جبرائيل بن بختيشوع، وقال : «أتذكر يا جبرائيل رؤياى بالرقة» ..

ثم التفت الى مسرور السياف وقال له : «جئنى يا مسرور من تربة هذا البستان ..

فمضى ، وأتى بالتربة فى كفه حاسرا عن ذراعه . فلما نظر الرشيد اليها صاح :

«هذه والله الذراع التى رأيتها فى منامى، وهذه والله الكف عينها، وهذه التربة الحمراء ماخرمت منها شيئا» وبكى ..

وكان الرشيد قد خرج الى خراسان لحرب رافع بن الليث الذى ثار عليه واستقل بسمرقند، فقد كان يحيى بن الاشعث متزوجا بابنة عمه ابى النعمان ، وكانت ذات جمال ويسار، فوقع بينهما ما جعله يتركها بسمرقند ويقيم فى بغداد متخذا السرارى ، فلما طال ذلك عليها أرادت التخلص منه، فعلم رافع بن الليث أمرها فطمع فيها ، وأغراها باعلان خروجها عن الاسلام لتصبح طالقا من زوجها ، ثم تعود فتتوب ، ففعلت وتزوجها رافع .

فشكا يحيى بن الاشعث ذلك الى الرشيد ، فكتب الى على بن عيسى والى خراسان يأمره أن يفرق بينهما، وأن يعاقب رافعا، فيجلده ، ويقيده ، ويطوف به على حمار فى سمرقند تعذيرا له على فعلته النكراء ، وعبرة لسواه. ففعل به الوالى ما أمر به الرشيد ثم حبسه ففر رافع من الحبس، فظفر به على بن عيسى ببلده «بلخ» واراد ضرب عنقه ، فشفع له عيسى بن على بن عيسى، وأعيد الى سمرقند ، فأقام بها. لكنه ما لبث أن وثب على عامل المدينة، فقتله وقتل اصحابه واستولى هو عليها. فوجه اليه على بن عيسى ابنه عيسى ، فهزمه وقتله وأخذ يوسع نفوذه فيما جاوره من البلاد .

هال الرشيد ما فعله رافع بن الليث ، وكان وقتئذ بالرقة، فاعتزم أن يسير إلى

خراسان لتأديب الثائرين ، وتأهب للرحيل فى جيش ضخم، اصطحب فيه قواده ووزراءه وأهل أنسه، وقبل الرحيل بأيام دخل عليه طبيبه ابن بختيشوع ، فوجده عابسا واجما، وقد استغرق فى التفكير ، وبدا على وجهه الحزن والتشاؤم فجزع الطبيب، وخشى أن يكون ضحية من ضحايا تلك الحال الرهيبة التى كانت تعترى الرشيد ، فيأمر بسجن من يريد وقتل من يريد بلا سبب ولا تحقيق، وكأنما غضبه ورضاه قدر يسوقه الله الى من يشاء فتحل به النقمة، أو تسبغ عليه النعمة ، وينزل به العذاب ، أو يصيبه الخير والثواب.

ووقف ابن بختيشوع مليا أمام سيده لا يجرؤ على سؤاله ، ولا يجد من نفسه قدرة على تفهم حاله، وجمد فى مكانه جمود الموت. وكان من عادته أن يدخل على الرشيد كل صباح ليتفقد صحته، ويتبسط الخليفة معه فيحدثه عن جواريه وساعات أنسه ويسأله عن أخبار العامة، فلما رآه فى تلك الحال سيطر عليه الجزع ، وعقد لسانه الخوف وامتلكت الرهبة منه كل جنان .

وأحس الرشيد ما أصاب طبيبه ، فرفع طرفه اليه، وتهيأ فى تكلف للحديث فتشجع ابن بختيشوع ، وقال :

– جعلنى الله فداؤك يا سيدى . ما حالك ؟ . أعلة تشكوها – أخبرنى عنها فلعل عندى دواءها .

– لا أشكو علة ..

– هل هى حادثة فى بعض من تحب، فتلك مما لا يدفع ، ولا حيلة فيه إلا بالتسليم والغم لا درك فيه .

– لا ... ولاذاك ...

– هل ورد عليك فتق فى مملكتك . فان كان ، فان الملوك لا تخلو من ذلك . وأنا أولى من أفضيت اليه بالخبر ، وتروحت اليه بالمشورة .

– ويحك يا جبرائيل . ليس غمى لشيء مما ذكرت . وانما هو لرؤيا رأيتها فى ليلتى

قد أفزعتنى ، وملأت صدرى .

– فرجت عنى يا أمير المؤمنين . وما أرى فيما رأيت ما يفزعك ويحزنك :

– وكيف ذلك ؟!

– انما الرؤيا الخاطر يتجسم فى المنام أو من تأثير بخار من أبخرة الطعام ، أو هى صنعت من أضغاث الاحلام .

– لكنى أخشى ان تكون صادقة ، فقد رأيت فيها عجبا لم أره فى يوم من الأيام .

– وماذا رأى أمير المؤمنين ؟

– رأيت كأنى جالس على سريرى ، فبدت من تحتى ذراع أعرفها ، وكف اعرفها وافهم اسم صاحبها . وفى الكف تربة حمراء، وقال لى قائل اسمعه ولا أرى شخصه :

هذه التربة التى تدفن فيها ، فقلت واين هذه التربة ؟ قال بطوس ، وغابت اليد وانقطع الكلام .

– أحسبك يا أمير المؤمنين لما أخذت مضجعك فكرت فى خراسان وما ورد عليك من انتقاض بعضها .

– قد كان ذلك ..

– فهذا الفكر خالطك فى منامك ، فولد هذه الرؤيا ، فلا تحفل بها جعلنى الله فداءك وأتبع هذا الغم سرورا ، وأعد الي نفسك البهجة بالموسيقى والغناء .

مضت الايام على هذه الرؤيا ، والرشيد بمدينة الرقة يتأهب للرحيل الى خراسان وذات يوم جمع المغنين ، وعلى رأسهم ابراهيم الموصلى ، وحضر فيهم مسكين المدنى ويعرف بابى صدقة، وكان مليح البادرة، حاذقا فى العزف على القضيب فشرب الحاضرون، وعمل فيهم النبيذ، فأمر الرشيد صاحب الستارة ، ابن جامع أن يغنيه فغنى فلم يطرب ، فاقترح على غيره فلم يطرب، فقال الرشيد، فليغن ابو صدقه . فاندفع ابو صدقة يغنى قول الشاعر :

قف بالمنازل ساعة فتحمل

فلسوف احمل للبلى فى محمل

فقال الرشيد : «يا مسكين أعده» فاعاده ، فاشجاه وأطربه ، وقال له : «أحسنت وأجملت» .

وعجب الحاضرون لاستحسان الرشيد لغناء مسكين المدنى مع وجود فطاحل الموسيقى والغناء فى هذا الحفل !

ورفعت الستارة عن المغنين ، فقال مسكين :

- يا أمير المؤمنين أن لهذا الصوت خبرا.. فقد كنت عبدا خياطا لبعض آل الزبير، وكان لمولاى على ضريبه ادفع اليه كل يوم درهمين ، فخطت يوما قميصا لبعض الطالبين ، فاطعمنى وسقانى اقداحا، ودفع لى درهمين ، فخرجت وأنا جذلان ، فلقيتنى سوداء على رأسها جرة، وهى تغنى هذا الصوت فاذهلنى على كل مهم ، وانسانى كل حاجة، فقلت لها : «بصاحب القبر والمنبر إلا ألقيت على هذا الصوت» فقالت : وحق صاحب القبر والمنبر لا ألقيته إلا بدرهمين » فدفعت اليها الدرهمين فانزلت الجرة عن عاتقها واندفعت ، فما زالت تردده حتى كأنه مكتوب على صدرى ، ثم انصرفت الى مولاى ، فقال «هلم خراجك » ! فقلت له : «كان .وكان .. فقال : «يابن اللخناء..» وبطحنى وضربنى ، وحلق لحيتى ورأسى. وبت ليلتى من أسوأ خلق الله حالا، وأنسيت الصوت مما نالنى. فلما اصبحت غدوت نحو الموضع الذى لقيتها فيه، وبقيت متحيرا لا أعرف اسمها ولا منزلها ، وأننى لكذلك إذ نظرتها مقبلة ، فنسيت كل ما نالنى ، وملت اليها فقلت : «انسيت الصوت ورب الكعبة» وعرفتها ما أصابنى فقالت : «وحق القبر ومن فيه لا فعلت إلا بدرهمين ، فرهنت حلمى على درهمين ودفعتهما اليها، فانزلت الجرة عن رأسها ، ومرت فيه . ثم قالت :

- كأنى بك مكان الأربعة دراهم اربعة آلاف درهم !..

ثم انصرفت الى مولاى وجلا. فقال : «هلم خراجك !..» .

فلويت لسانى ، فقال : « يابن اللخناء ألم يكفك ما أصابك بالامس» .

فقلت : «اسمعك الصوت الذى اشتريته أمس واليوم » .. واندفعت أغنية ، فقال :

«ويحك معك مثل هذا الصوت ولم تعلمني.. أمرأته طالق لو كنت قلته با لامس لاعتقتك »
.فضحك الرشيد . وقال : «ويلك ما أدرى أيما أحسن : حديثك أم غناؤك ، وقد امرت لك بما ذكرته السوداء » .

وسار الرشيد بجيشه يريد خراسان ، وقد استخلف على الرقة ابنه «القاسم » وعلى بغداد ابنه «الامين » واصطحب معه «المأمون» وكان يعطف عليه ويقدمه لنجابته، وقد مهد له قبل وفاته للفوز بالخلافة ، وضم اليه كبار قواده ، وكان يود له البيعة من بعده لولا حبه لزوجته زبيدة، وخشيته من بني هاشم وانتقاض العرب عليه ، ويذكر هنا انه كان جالسا يوما مع يحيى بن خالد، فاقبل محمد الامين وعبد الله المأمون ، فقال الرشيد : «يا محمد ما أنت صانع أن صرف الله اليك امر هذه الأمة؟» .

فقال الأمين : «أكون مهديها يا أمير المؤمنين » .

فقال الرشيد : «أن تفعل فانت أهل لذلك » .

والتفت الى المأمون ، وقال : « يا عبد الله . ما أنت صانع أن صرف الله اليك امر هذه الأمة؟» .

فابتدرت دموع المأمون ، وفطن الرشيد لما أبكاه ، فلم يملك عينيه وأرسلهما . ثم اعاد السؤال عليه، فقال : «اعفني يا أمير المؤمنين من ذلك .

– عزمت عليك لتقولن ...

– ان قدر الله ذلك – جعلني الله فداؤك – أجعل الحزن شعارا ، والحزم دثارا، وسيرة أمير المؤمنين مشعرا ، لا تستحل حرماته، وكتابا لا تبدل كلماته .

فأشار اليهما بالانصراف فذهبا ، ثم أقبل على يحيى وأنشد بيت صخر بن عمرو :

أهم بامـــر الحـــزم لو استطيعـــه

وقد حيل بين العيــــــر والنـــزوان

وصحب المأمون والده فى رحلته ، حتى إذا وصلوا إلى «جرجان» كانت العلة قد دبت فى جسم الرشيد، فأمر المأمون بالتقدم إلى مرو مع فريق من جيشه وقواده

العظام، وفيهم عبد الله بن مالك، ويحيى بن معاذ، والعباس بن جعفر، ونعيم بن حازم، وتقدم هو بمن معه الى «طوس» .. وهناك اشتد الداء ، واعجزه الضعف عن المسير، وكانوا قد نقلوا اليه ما شككه في نية المأمون ، وما جعله يعتقد انه هو واخاه الامين يحيكان حوله الدسائس ، ويحيطانه بالعيون، ويستعجل كل منهما موته ليفوز بمأربه في الملك والسلطان ودخل عليه الصباح الطبري وهو في مرضه ، فقال له الرشيد : ما أظنك تراني ....

– عفاك الله يا أمير المؤمنين ، وحفظك للدنيا والدين .

– انك لا تدرى ما أجد ، ولا تعرف ما أصابني . فلا والله ما أشكو من علة الجسد مثل الذى اشكوه من هم النفس .

– وماذا يخشى أمير المؤمنين والأمة حوله، مجمعة على حبه، راضية بحكمه ، سعيدة فى ظلاله ، قوية بعزمه وسداده ؟

– كان ذلك .. ولكن أمرا أخشاه من بعدى، وقد بدأ منذ دب المرض الى بدني . والأمين والمأمون يتنافسان وقد صار لهما بين رجالى حزبان، ولكل واحد منهما على رقيب . فمسرور رقيب المأمون ، وجبرائيل بن بختيشوع رقيب الأمين ، وما منهم أحد إلا وهو يحصى انفاسى ، ويستطيل دهرى ، وأن أردت أن تعلم ، فلساعة أدعو بدابة، فيأتونى بها عجفاء قطوف لتزيد بى علتى ..

ثم دعا الرشيد بدابة ، فأتوا بها كما وصف ، فنظر الى الصباح وركب ! ..

وكان الرشيد قد اصطحب معه العباس بن الاحنف فلما وصل إلى خراسان دخل على العباس وقد ضعف عن المسير واشتاق الى أهله فأنشده :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا
ثم القفول ، فقد جئنا خراسانا
ما أقدر الله أن يدنى على شحط
سكان دجلة من سكان جيحانا

متى الذى كنت أرجـــــوه وأملـه

أما الذى كنت أخشاه فقــــد كانا

عين الزمـــان أصابتنا فلا نظـــرت

وعذبت بصنوف الهجــر ألـــوانا

فقال الرشيد : قد اشتقت يا عباس ، وأذنت لك خاصة . وكان الرشيد يألف العباس، ويستملح مجلسه ، ويعجب برقته وادبه، ويجيز له ما لا يجيز لسواه ، وقد دخل الاصمعى عليهما ذات يوم ، فقال العباس : «دعنى يا أمير المؤمنين أعبث بالاصمعى»..

فقال الرشيد : «أنه ليس مما يحتمل العبث» .

فقال : أنت أعلم .

فقال العباس : «يا أبا سعيد من الذى يقول » :

إذا أحببت أن تصنع شيئا يعجب الناســا

فصـــور ها هنـــا «فــــــوزا»

وصــــــور ثم «عباســـــا»

فـــان لـم يدنــــــوا حتـــــى

تـــرى رأســــيهما رأســـــا

فكـــذبهما بمـا قاســــــــت

وكـــذبـــه بمـــا قاســـــــى

فقال الاصمعى : قاله الذى يقول :

إذا أحببت أن تبصر شيئا يعجب الخلقـــا

فصــــور هــــا هـنا «دورا»

وصــور هـــا هنا «فلقــــا» (1)

فان لـــم يدنــــــوا حتى

1- دور ، وفلق عاشقان مثل فوز ، والعباس ، وهما عاشقان .

ترى خلقيهما خلقـــــــــــــا

فكــــذبها بمـــا لاقـــــت

وكذبـــــه بما يلقـــــــــى

وعاد العباس بن الاحنف ، وأقام الرشيد بطوس، وقد جاءته أنباء انتصار هرثمة بن أعين والى خرسان الجديد على رافع بن الليث ، وأسره طائفة من أهله وصحبه وفيهم أخوه بشير بن الليث . وقد بعث بالاسرى إلى «طوس» .

سر الرشيد بهذا النصر، وتفاءل خيرا، وزال عنه كثيرا مما يجده من الآلام ، وابتهج نشاطه ، حتى إذا هدأ إلى نفسه ، واطمأن من نشوته ، أحس بالداء يهاجم جسده ، ويزجى اليه أشد الآلام ، فابتأس الرشيد ، وعاد إلى يأسه ، واستفحل هذا اليأس حين علم ما قاله عنه الطبيب الفارسى . فقد أرسل اليه ابن بختيشوع يستشيره ويسأله المعونة فى علاج الأمير فبعث يقول :

– عرفوا صاحب هذا الداء أنه هالك ، فليوص، فانه لا براء له منه .

ووثب متحاملا يقوم ويسقط .. ونقم على هؤلاء الثائرين الذين جشموه متاعب هذه الرحلة.. ودعا بأخى رافع «بشير بن الليث» وصاح به :

– أزعجتمونى حتى تجشمت هذه الاسفار ، مع علتى وضعفى، والله لو لم يبق من الآن إلا أن أحرك شفتى بكلمة ، لقلت «اقتلوه » .. ولا قتلتك قتله ما قتل مثلها من قبلك.. ثم أمر بقصاب ففصله عضوا عضوا ..

واشتدت العلة بالرشيد وشعر بالموت يدلف فى بدنه، فقال لجبرائيل بن بختيشوع :

– أتذكر يا جبرائيل رؤياى بالرقة ؟! ..

ثم التفت الى مسرور ، وقال له :

– جئنى يا مسرور من تربة هذا البستان

فمضى مسرور، وأتى بالتربة فى كفه حاسرا عن ذراعه ، فلما نظر اليها فقال :

– هذه والله الذراع التى رأيتها فى منامى، وهذه والله الكف عينها، وهذه التربة

الحمراء ، ما خرمت منها شيئا ، وبكى ..

وتعب الرشيد ، ودب اليه الفناء ، وأرجف به اصحابه ، فبلغه ذلك ، وخشى الفتنة ، فامر بمطيه يركبها ليراه الناس ، فجيء له بفرس ، فلم يقدر على النهوض ، فجيء له سردون ، فضعف عنه فجيء له بحمار ، فلم يستطع ركوبه ، فقال :

- ردونى .. ردونى .. صدق والله الناس . وأنشد :

أحين دنا ما كنت أخشـــــى دنـــــوه
رمتنـــى عيـــون النـــاس من كل جـــانب
فأصبحت مرحـوما ، وقد كنت محســـــدا
فصبـــــرا علـى مكروه أمـــر النـــوائب

وأيس الرشيد من نفسه ، واستهلك فى يأسه، ودخل عليه سهل بن صاعد، وهو يقاسى ما يقاسى فقال : «عافى الله أمير المؤمنين» ..

- أحسنت الدعاء، وأصبت لو استجبت .. !

- أرجو ذلك ...

فضحك المريض العظيم على فراش موته ضحكا صحيحا ، ثم التفت الى سهل ، وقال :

وانى من قـــوم كـــرام يزيدهـــم
شـماســـا وصبرا شـــدة الحـدثان

وغشيته سكرات الموت ثم استفاق ، فدعا أصحابه ، وقال لهم :

إن كل مخلوق ميت ، وكل جديد بال، وقد نزل بى ما ترون وأنا أوصيكم بثلاث : الحفظ لامانتكم ، والنصيحة لائمتكم ، واجتماع كلمتكم . وانظروا الأمين والمأمون فمن جار منهما على صاحبه ، فردوه عن بغيه، وقبحوه له » .

ثم أمر بحفر قبر فى موضع من بستان الدار ، وأنزل اليه قوما فرأوا فيه القرآن حتى ختموه ، وهو فى محفة على شفير القبر يقول : «ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى

سلطانيه، يا أبن آدم تصير إلى هذا.. واسوأتاه من رسول الله .. » .

وأغمى عليه فحملوه الى داخل الدار، فبقى فى اغمائه ثلاثا، ثم صعد فى الثالث من جمادى الاولى سنة ١٩٣هـ بعد أن استوفى حظه من حياة ما زالت مضرب الامثال فيما جمعت من أنس وطرب، وعلم وأدب ، وعدل وجور ، وتقوى وفجور، وسعادة وشقاء، ولذة وعناء، ونور وظلام، وحرب وسلام .

الفصل الرابع عشر

هارون الرشيد فى الميزان

إذا كان هارون الرشيد قد جمع فى مسيرة حكمه بين الحكمة وخدمة المسلمين فى شئون دينهم ودنياهم، والحزم، وحسن القيادة، وبين اللهو، والأنغماس فى الملذات، فبماذا نصف هذه الشخصية؟

هل نصفها بالأزدواجية؟

هل نصفها بالتناقض الحاد؟

إن كل ما نستطيع أن نقول عن هارون الرشيد أنه انسان قبل كل شئ.. أنسان بكل ما فى هذه الكلمة من قوة وضعف، وخير وشر، وقسوة ورحمة وحتى نتعرف على جوانب مثل هذه الشخصية علينا أن نعرض لأهم جانب من جوانبها الذى اشتهرت به وهو جانب اللهو والمجون من خلال شهادة الأديب الكبير أحمد أمين .(١)

هناك فرق كبير بين صورة الرشيد التى يمثلها المؤرخون أمثال الطبرى وابن خلدون وأبى يوسف فى الخراج، وصورته التى تصورها ألف ليلة وليلة، والأغانى، واعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بنى العباس..ألخ فصورة المؤرخين تصور الرشيد رجل جد فيه شئ من اللهو والكتب الأخيرة تمثله رجل لهو فيه شئ من الجد. وربما كانت صورة المؤرخين أعدل لأن الأخرين أكثر حرية وتساهلا فى الرواية وأميل إلى اللهو ودعوة الناس إليه، واميل إلى التزيد من ذكر عطاءات الرشيد و البرامكة ونحوهم، لعلهم يستقيدون من امراء عصرهم بعض من اعطى من يحكون عنه، فانا لو حسبنا حساب المال الذى أعطاه الرشيد والبرامكه على قولهم، لما كفت الدنيا لتحقيق ما قالوا.. فكيف ومالهم محدود .

على كل حال كان للرشيد من غير شك جانب اللهو، وللهو ذلك العصر تاريخ طويل يبتدىء من الدولة الآموية. ولكن الامويين كانو يعملون الملاهى لاذواقهم البسيطة العربية.. كالذى روى ان الحجاج أولم فى اختتان بعض ولده، فاستحضر بعض

١- أحمد أمين / هارون الرشيد / ص ١٨٢ .

الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس. وقال له : «أخبرنى بأعظم صنيع شهدته » .

فقال له : « نعم .. أيها الأمير .. شهدت بعض مرازبة كسرى، وقد صنع لأهل فارس صنيعا وأحضر فيه صحاف الذهب على أخونة الفضة.. أربعا على واحد، وتحمله أربع وصائف، ويجلس عليه أربعة من الناس. فاذا طمعوا اتبعوا أربعتهم المائدة بصحائفها ووصائفها»...

فقال الحجاج يا غلام انحر الجزور كأنه كره هذا الوصف واستعظمه

وكان الأمويون على كل حال يعدلون العادات الفارسية و الاغانى الفارسية ونحو ذلك بذوقهم العربى . أما العباسيون فكانوا يأخذون عادات الفرس كما هى بحذافيرها .. اتخذوا النيروز لهم عيدا ولم يكن له فى عصر الامويين شأن له بال . وفى عصر العباسين كانت تهدى فيه الهدايا، وتوزع فيه اللطائف ويحتفلون به كما يحتفلون بالعيد الكبير والصغير .. فلما جاءت الدولة العباسية كانت الاوامر تحتاج الى جد لا لهو فيه، ولولاه لضاعت الدولة من أيديهم .فكان أبو العباس السفاح مثلا أول الخلفاء العباسيين، جادا لا يلهو، ولما تزوج أم سلمه حلف لها أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى

وحاول بعض المقربين اليه أن يحملوه على اللهو فأبى وأبعدهم، لأنه شعر بكثرة ما عليه من تبعات لا تمكنه من أن يلهو ساعة .

وجاء بعده رجل الدولة أبو جعفر المنصور، فكان مثل أخيه جادا لا يلهو فيروى الطبرى أنه لم ير فى دار المنصور لهو قط ولا شيء يشبه اللهو واللعب والعبث. ولما سمع شعر طريف بن تميم العنبرى:

ان قناتـــــى لنبـــع لا يؤيســـــها
غمـــــز الثقاف ولا دهـــن ولا نـــــار
متى أجر خائفـــا تأمن مســــارحه
وأن أخف آمنا تقلق به الـــــــدار
وان الامور اذا أوردتها صــــــدرت

ان الامـــــور لها ورد واصـــدار

قال:« أنا أحق بأبياته هذه» . وأمر أن يحدو الحادى له بهذه الابيات، فأمر باعطائه درهما واحدا...

فقال الحادى:« يا أمير المؤمنين حدوت بهذه الأبيات لهشام بن عبد الملك، فأمر لى بعشرين ألف درهم وتأمر لى أنت بدرهم»

قال:«انا لله.. ذكرت ما لم نحب أن تذكره، وصفت رجلا طالما أخذ مال الله من غير حله،وأنفقه فى غير حله ..ياربيع ، أشدد يديك به حتى يرد المال .

فما زال الحادى يبكى ويتشفع حتى كف يده . وكان لا يشرب ولا يحب الشراب . وكل ما فعل انه أذن لبختيشوع الطبيب أن يشرب بحضرته. واشتد الأمر بالناس من كثرة جده وقسوة. ولما رأوا المهدى يلهو بعض الشيء ويلعب سرى عنهم كما سرى عن الناس بموت عمر وتولية عثمان » وقد كان المهدى كريما لا يكتنز، ويحب الفنون الجميلة من غناء وشعر . وبدأ يسمعهم من وراء الستار حفظا لهيبة الخلافة. ثم جره السمار الى أن يحضر مجلس المغنين بدعوى أن اللذة فى مشاهدة السمر أدعى الى السرور . كما كان يكثر من الجوارى ويحب شراءهن ولم يكن يشرب النبيذ ولكن يسمح للناس أن يشربوا فى حضرتة. وملأ بشار بغداد وغيرها بشعره الخليع من مثل:

عســـر النســـاء الى مياســـرة

ومثـــل :

قد عشت بين الريحان والـراح والمـزهر

فى ظل مجلـــس حســـــــــن

وقــد ملأت البـــلاد ما بين قيفــــور

الـــى القيـــــروان فاليمـــــن

شعرا تصلـى له العواتق والشيـــب

صـــلاة الغواة للوثـــــــــن

ثم نهانى المهـــــدى فانصرفـــت

نفســـــى صنع الموفق اللقـــــن

فــالحمـــــد للـــــه لا شـــريك له

ليس بباق شــــىء علـــــى الزمــن

ثم انتقل اللهو فى عهد الرشيد نقلة جديدة. فأسرف فيه اسرافا لم يعرفه خليفة من قبله . وقد منحه الله عاطفة قوية ينسى بها نفسه متى وجدت دواعى الأنس .. وساعده على ذلك سلطان البرامكة فى زمنه ونقل عادات الفرس، وما نقل عنهم من ترف ونعيم. وكان صديق الرشيد جعفر البرمكى شابا مسرفا على نفسه يلهو ما شاء له اللهو ، وكلاهما كان اذا نحا ناحية يصل فيها الى نهايتها. حتى ليخيل لمن يقرأ مثل كتاب الاغانى انه لا يعرف الا اللهو.

ويخطو خطوة أخرى ، فيشرب ويسرف فى الشراب لا كما كان يفعل أبوه ..

على أنه و الحق يقال لم يكن لاهيا كل اللهو كما تصوره الاغانى .. ولا جادا كل الجد كالذى يصوره بعض الناس ، وانما كان جادا لاهيا معا. تثور عاطفته الدينية أحيانا فيصلى مائة ركعة ويبكى من الوعظ ويحج ماشيا. وتثور عاطفته الدنيوية حينا فيسمع الغناء ويشرب الشراب. ويقول الشعر وتثور عاطفته الحربيه أحيانا فيتولى قيادة الصائفة و الشاتية . فمن الناس من يجد ويلهو .. فاذا جاء وقت الجد أسرف فيه ، واذا جاء وقت اللهو أسرف فيه. ويقول مع القائل :

ولله منـــــى جانب لا أضيعـــــه

وللهـــــو منى والخـــلاعة جانب

فكان الرشيد من هذا الصنف : يحارب فيحسن الحرب، ويلهو فيحسن اللهو، وكان أبو نواس يعجب الرشيد حين تشعشع الخمر فى رأسه . فيسمعه يصف الخمر ويصف لعبها بالعقول كالذى يقوله :

اسقنـــــــى يا بن أدهمـــــا

واتخذنى لـــــك ابنمـــــــا

اسقنيهـــــا سلافــــــــة

سبقـــت خلـــق آدمــــــا

فهـــى كانت ولم يكـــــن

ما خلا الارض والســمـــا

رأت الدهــــــر ناشئــــــا

وكبيـــــــرا مهرمـــــــا

فهـــــى روح مخلــــــص

فــــارق اللحـم والدمــــا

فاسقنيهـــا وغن صوتــــــا

لك الخيــــر- أعجمــــــا

أو يقـــــول:

يا نديمـــى رد باللـــــــــه

مشاشى وعظـــــامـــــى

اسقنى بالكاس والطـــــاس

جميعـــــــا وبجـــــام

واســـــقنـى حتـــى ترانـى

لا أرجـــــى للقيــــــام

فالرشيد يستخدمه كنديم على الشراب يطرى له شرابه و يحضه على الاكثار منه، فهو كالنغمة المرحة المستهترة على الوتر المرح الطروب .

وأما منصور النميرى فيطرب الرشيد حين تثور عاطفتة على الأمويين و العلويين ، فيحتاج الى من يغنيه بذمهم جميعا ومدح آل العباس عامة ومدحه خاصه وهكذا، مما نوع الشعر وفرعه، وجعل باب المديح فى الأدب من أكبر الابواب وأطولها .

وكان يجيز من شرح له مسألة نحوية أو فقهية أوأدبية، كما يجيز الكثير لمن غنى

فأجاد، ومن غنت فأحسنت .

يسمع قول أبـى العتاهيـــة :

خـــانك الطـــــرف الطمـــــــوح
أيها القلـــب الجمـــــــــوح
لدواعـــــى الخـــير والشـــــر
دنــــــــو ونــــــــزوح
هــــل لمطلــــــوب بــــذنب
توبـــــة منه نصــــــــوح
كيف اصـــــلاح قلــــــوب
انمــــا هـــن قــــــــروح
أحسن الله بنا ان الخطـــايا لا تفوح
بين عينى كل حى علـــم المـــوت يلوح
كلنـــا فى غفلة والموت يغـــدو ويروح
لبنـــى الدنيــــــا من الدنيـــا
غبـــــــوق وصبـــــــوح
رحـــــــــن فى الوشـــــــى
وأقبلن عليهن المســـــــــــوح
كل نطاح من الدهـــر له يوم تطـــوح
نح على نفسك يا مسكين ان كنت تنوح
لتمـوتن وان عمـرت ما عمــــر نوح

فأبو العتاهية يعجب الرشيد شعره اذ كان به نزعة الى الزهد واحتقار ما عليه من ترف ونعيم...فيسمعه يقول:

اذا ما خلوت الدهر يومـــا فلا تقل

خلـــوت ولكـــن قل على رقيـب
ولا تحســـبن الله يغفل مــا مضـى
ولا ان مـــا يخفى عليــه يغيـــب
لهـونا لعمــر اللـــه حتى تتابعت
ذنـــوب علـــى اثــارهن ذنـوب
فيــاليت ان الله يغفــر ما مضــى
ويـــــأذن فى توباتنـــا فنتـــوب
وان امرءا قد ســـار خمسين حجة
الـــــى منهـل من وردة لقريـــــب
فاحســـــن جزاء ما اجتهدت فانمـا
بقرضــك تجزى والقروض ضـروب

وهكذا من نصائح يميل اليها الرشيد فى بعض الاوقات فيتعظ بها، وقد يبكى منها فيكون أبو العتاهية فى ذلك كالنغمة الحزينة على وتر حزين، فيبكى الرشيد وينتحب، ويسمع نكتة من ابن أبى مريم فيضحك حتى يستلقى على قفاه وهكذا .

ويقوم خارجى عليه فيقتل أبطاله وينتهب أمواله مرارا، ويجهز اليه الرشيد جيشا قويا فيحاربونه ويغلبونه . ويأمر الرشيد باحضاره فلما يمثل بين يديه، يقول الرشيد: « ما تريد أن أصنع بك ؟» ، قال: «ما تريد أن يصنع الله بك اذا وقفت بين يديه»

فيأمر باطلاقه.. فلما خرج ، قال بعض جلسائه:

«يا أمير المؤمنين.. رجل قتل ابطالك وانتهب اموالك تطلقه بكلمة واحدة، فهذا مما يجرىء عليك أهل الشر .

فقال الرشيد : ردوه فعلم الرجل أنه قد تكلم فى أمه فقال : «يا أمير المؤمنين لا تطعهم . فلو اطاع الله فيك الناس ما ولاك عليهم» .

فيعفو ثانيا.. .

ويخرج خارجى آخر ليس له مثل حجحه وبراعته فيقتل أبطاله ويدوخ جيوشه . فيحضر اليه والرشيد على سرير الموت. فيأمر بقتله ويقول : «والله لاقتلك ولو كنت فى النفس الأخير» وهكذا تتجاذبه عواطف الخير والشر والانتقام والعفو. والناس يقلدونه .

«فما صدقوا أن رأوا الرشيد يقيم مجالس اللهو ويستمع إلى إبراهيم الموصلى وغيره.. ويشهد حفلات الرقص حتى قلدوه فى ذلك . فالغنى الكبير ، والوسط الحال، والتاجر الواسع الثراء ، يقيمون حفلات على قدرهم مثله. وقد رزق الله بنى العباس كثرة فى العدد من كثرة ما يصلون إلى الاحرار والاماء ، حتى لقد أحصى عدد اولاد العباسيين فكانوا أكثر من ثلاثين ألفا كانوا أو أكثرهم أغنياء مترفين . يقلدون رئيسهم الرشيد ويفعلون فعله فى اللهو والترف .

وقد حدثونا أن عبد الله بن العباس بن الوزير الفضل ابن الربيع كان مغنيا ماهرا.. وماجنا مستهترا .. يصطبح فى حدائق النرجس ويعيش عيشة لهو وخلاعة . وأمثاله كثيرون يطول ذكرهم .

وسرت العدوى من أولاد الاغنياء الى الطبقة الوسطى.. وبالغوا فى الموائد وتنسيقها وألوان طعومها . ولكن الحق يقال أن الحياة الاجتماعية فى بغداد كانت اشبه شيء بالحياة الاجتماعية وكبار التجار يجرى المال فى أ يديهم جرى الماء. والعلماء وصغار الفلاحين وصغار التجار لا يجدون ما ياكلون إلا أن يتصل عالم بخليفة أو أمير فيدر عليه الرزق. فالمعيشة لم تكن ديمقراطية على النحو الذي نألفه اليوم فى الديمقراطية يستطيع أن يتكسب فيه العالم من الشعب .

انما كانت حياة ارستقراطية أن لم يستعن العالم أو الشاعر بأمير مات من الجوع . ولذلك اشتهر قول القائل فى بغداد :

بغـــــداد دار طيبـــها آخـــــذ

نســـــيمها منـــى بأنفـــــــاس

تصلـــــح للموســــر لا لأمـــــرى

يبيت فى فقـــــر وإفـــــلاس

لو حلها قـــــارون رب الغنـــى

أصبح ذاهـــــم ووسـواس

هي التـــي توعـــد لكنـها

عاجلـــة للطـــاعم الكـــاسى

حـــــــور وولـــدان وكل ما

تطلبـه فيها ســـوى النـــاس

ويقول آخر :

أذم بعـــداد والمقـــــام بها

من بعـد ما خبرة وتجـــريب

ما عـند سـكانها لمختبـــط [1]

خير، ولا فـــرحة لمكـــــروب

يحتـــاج باغى المقام بينـــهم

إلى ثـــلاث من بعد تثـــريب

كنـــوز قارون أن تكـــون له

وعمر نـــوح وصبر أيـــوب

ولذلك زهد الناس فى هذه الحالة السيئة ، ونزع بعضهم الى الزهد والتصوف . وقد شكا أبو العتاهية من سوء هذه الحالة ، وصور بؤس الشعب فى شعره تصويرا لطيفا فقال :

من مبلغ غنى الامـــــام

نصائحـا متواليـــــــة

أنى أرى الاســــــعار

١- المستجدى .

أسعار الرعية غاليـــــة
وأرى المكاســـب نـــــزرة
وأرى الضـــرورة فاشــــية
وأرى غمـــوم الدهـــــر
رائحـــة تمـــر وجائيـــة
وأرى اليتـــامـــى والارامـــل
فى البيـــــوت الخاليـــة
من بين راج لم يـــــزل
يســـــمو اليك وراجيـــة
يشكون مجهدة بأصـــــوات
ضعـــــاف عاليـــــة
يرجـون رفـــدك كـــى يـــروا
مما لقـــــوه العافيـــة
من يرتجـــى للنـــــاس
غيرك للعيـــون الباكيـــة
من مصبيـــــات جـــوع
تمســـى وتصـــبح طـــاوية
من يرتجـــى لدفـــاع كـرب
ملمـــة هى ماهيــــــة
من للبطون الجائعــــــات
وللجســـوم العـــــارية
يا ابن الخـــــــلائف
لافتنت ولا عـــدمت العافيـــة

إن الاصول الطيـــــــبـــــات
لها فـــــــــروع زاكيـــــة
ألقيــــــت اخبـــــارا اليك
عن الرعيـــــة شـــافيـــــة

وحتى الأغنياء والمترفون لم يكونوا منعمين بغناهم وترفهم كما ينبغى ، لأنهم كانوا عرضة فى كل وقت للقتل والمصادرة .

وقد صدق العتابى، إذ قيل له : «لم لا تقترب بأدبك الى السلطان؟..فقال : «لأنى رأيته يعطى عشرة آلاف فى غير شىء ويرمى من السور فى غير شىء، ولا أدرى أى الرجلين أكون » .

ويصف لنا المؤرخون لهذا العصر فرقة تسمى المتطوعة تنكر ما فشا من الفسق فى بغداد . وتروى لنا «طبقات الصوفية» انتشار الزهد والفقر بين المتصوفين فى هذا العصر وذلك رد فعل لحياة اللهو بين الاغنياء والمترفين، ومن أراد أن يعيش ولم يتصل من العلماء بأمير أو وزير عاش فقيرا بائسا، كالخليل بن أحمد يقول : «إذا أغلق على باب حجرتى كفيت هموم الدنيا».. وجاءه يوما رسول الخليفة فأراه الخليل كوزا مملوءا بالماء وكسرة خبز جافة . وقال : «من كان عنده هذا لم يحتج الى خليفة أو أمير».

وحكت لنا كتب التراجم أخبارا كثيرة عن علماء زهدوا فى الامراء وعطايا الخلفاء، فكان مصيرهم الفقر المدقع.. كالذى حكوا عن عبد الوهاب الملاكى أنه كان يجتمع على بابه المئات من العلماء، ولما أراد الرحيل إلى مصر ودعه عدد كبير .. فقال : «والله لو وجدت فى بغداد من الخير ما يكفينى ما انصرفت عنكم وعنها».. قد وصل الى مصر وتيسرت حالة حضرته الوفاة ، فقال : «سبحان الله.. إذا عشنا متنا» وفى كتاب الفلاكة والمفلوكين أمثلة كثيرة من هذا القبيل .

وهذا هو السبب فى أن أكثر الشعر فى الأدب العربى . هو شعر المديح أو بعبارة أخرى هو شعر الاستجداء وأما غيره من الشعر فقليل بالنسبة إليه. وهذا أيضا هو السبب فى أن الظاهرين من الشعراء والأدباء هم شعراء بغداد .

وأما من عداهم فمغمورون، ولذلك أيضا كان العالم الديني يكاد يكون أفقر العلماء، لأن الدين يمنعه عن الأبتذال. ولذلك تقرأ تراجمهم فترى فقرأ مدقعا وبؤسا واضحا ورضا بالقليل مع الأفراط فى الجوع واحتمال الفقر وقد سبب، الافراط فى الغنى والافراط فى الفقر، حركة تشبه الاشتراكية اليوم. فقد روى المسعودى أن محمد بن سليمان قريب الرشيد كان يغل كل يوم مائة ألف درهم، فكان يركب يوما بالبصرة وسوار القاضى يسايره فى جنازة ابنة عم له. فاعترضه رجل وقال له: «يا محمد، أمن العدل أن تكون غلتك فى كل يوم مائة ألف أطلب نصف درهم فلا أقدر عليه؟»

ثم التفت إلى سوار فقال: «إن كان هذا عدلا فأنا أكفر به» فأسرع إليه غلمان محمد وكفوه عنه. وأيا ما كان، فنحن لو نظرنا إلى الرشيد بعين زماننا لمقتناه. يفعل ما يشاء، ولا يسأل عما يفعل. حاكم مستبد، لا يقيده برلمان ولا يتقيد بعدل دائم.. يكثر من مصادرة الاموال، ويوزعها بالهيل والهيلمان على من لها بأهل ومن ليس لها بأهل. وإلا فما بال أموال الرعية الفقراء المساكين.. تصرف منها آلاف من الدنانير على بيت من الشعر قيل فى مدحه. أو صوت جميل لحن له. أو على مسألة نحوية تافهة لا تساوى شيئا. أو على جارية جميلة تحسن الغناء .

ثم يخلص أحمد أمين إلى القول بأنه يحب هارون الرشيد رغم كل شئ، ويبرر هذا الحب بقوله: «ربما كان سبب حبى له أنه رجل عاطفى ذواق، يخضع للمؤثرات الوقتية، فيصلى مائة ركعة كل يوم ويحج ماشيا . ويهيم من ناحية أخرى بالجمال والغناء ومجالس الشراب. ويحدثه أبو العتاهية حديث الزهد فيبكى حتى تخضل لحيته، ويقول له ابن أبى مريم نكتة فيضحك حتى يستلقى على قفاه، ويرضى عن البرامكة فيطلق لهم العنان، ويغضب عليهم فينكل بهم أشد النكال ورجل كهذا يكون - عادة - صريحا صادقا.. وأحبه أيضا لأنه أعلى الشرق فى الغرب. فكلما ذكر هارون الرشيد، تخيل الغربيون الشرق بفتنته العجيبة وجاذبيته الساحرة، والسبب فى ذلك كتاب ألف ليلة وليلة وما أضفت عليه علاقته بشرلمان من فخفخة واجلال، وتوالى الوفود منه وإليه،

وحركة التجارة بين الشرق والغرب فى أيامه إلى غير ذلك .

ويضاف إلى هذا كله ما رزق من حسن حظ.. فكثير من الخلفاء قبله وبعده كمعاوية، وعبد الملك بن مروان، وهشام ابن عبد الملك، وعبد الرحمن الداخل، وعبد الرحمن الناصر، والمأمون، كانوا خيرا منه.

وغلطة كغلطة البرامكة كانت تكفى لأن تطوح بذكره، وتصغر من شأنه.. ولكن هى الظروف وهو الحظ، حتى أن بعض كبار المؤرخين كابن خلدون نصبوا أنفسهم للدفاع عنه وتصويره كأنه نبى كريم لا يصح أن يغنى ولا أن يشرب ولا أن يزل.

كل هذا ونحوه، جعله محبوبا عالى الذكر بعيد الصيت أما الكاتب الكبير ابراهيم المصرى فيصور الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى عصر هارون الرشيد فيقول: (١) .

كانت الحياة الاجتماعية فى عهد الرشيد تشبه من بعض الوجوه الحياة الاجتماعية عند الرومان أيام عزهم وصولتهم. واتساع افق امبراطوريتهم فالشعور بالجاه والسلطان، والاحساس بالدعة والرخاء، وشيوع اسباب الحضارة، وتعدد الوان الترف، ووفرة المباهج والمفاتن، والانتقال من حياة البداوة والتقشف إلى حياة الأمن والأستقرار – كل هذه العوامل جردت الخلق العربى فى عهد الرشيد من بعض فضائله الأصيلة، وأوهنت من روح القوة التى كان يمتاز بها، واضعفت العصبية العربية، وغلبت – ولا سيما عند الطبقة المترفة – نزعات المرح والتمتع وعدم الاكتراث على نزعات الوفاء والكبر والانفة التى كان يعرف بها الخلق العربى ولقد كان من الطبيعى أن تتمثل نزعة التمتع فى علاقة الرجل بالمرأة، وفى مركز المرأة نفسه، وفى أساليب الاقبال على مغريات الحس وملذات البدن، فشاع التسرى وتكاثر عدد الجوارى الفارسيات والرومانيات والتركيات، وتضاءل احساس الازواج بالغيرة، وقلت ثقة المرأة بزوجها، وأصبحت المرأة فى نظر الرجل متعة سرعان ما تزهدها نفسه، وسرعان ما يعافها فيستبدل بها غيرها.

١- الهلال / اغسطس ١٩٤٠ / ص ١١٨٧ .

وأفضى هذا الاسراف عند البعض فى استباحة شخصية المرأة واتخاذها اداة لهو واستمتاع، إلى اسراف مناقض له فى الغيرة عليها. فكان من جراء ذلك أن أمعن الكثيرون فى حجبها وضيقوا عليها الخناق وسجنوها فى البيوت واعتبروها مثار غنى وفتنة فالرجل المترف الماجن، المتحلل من الاوضاع والقيود، الذاهب فى مرضاة شهواته إلى أبعد حد، المستخف بالمرأة وكرامتها وعزة نفسها، هو الذى افسد نظرة المجموع إليها وحمله على اساءة الظن بها وساقة آخر الامر إلى اضطهادها واستبعادها ولما كانت الحياة الرحبة الناعمة الرخية هى قبلة المترفين، فقد شاعت إذ ذاك نزعة الكرم، وكثر التفاخر بالقدرة على السخاء، وأغدقت الاموال الوافرة على الكتاب والشعراء والمغنين، وتبارى الكبراء والعظماء فى اجتذاب العامة واستضافة المئات منهم حول موائد حافلة كانت فى ذلك العصر حديث الناس ومضرب المثل فى الكرم والجود وأسفر هذا الضرب من الحياة عن ظهور عارض خلقى آخر هو المصانعة والمجاملة ففشت نزعة الملق فى الاوساط العالية، وضعفت حاسة النزاهة، وقل الشعور بالواجب والمسؤلية، والف كبار القوم التسامح والتجاوز حتى فى بعض المشكلات الخطيرة المتعلقة بمصالح الدولة وكان لا بد لاستكمال عناصر هذا الترف تبديل جوهرى فى نوع المعيشة والوان الطعام واللباس، فعكف السراة على تشييد القصور العظيمة بواسطة مهندسين من الفرس والروم، وافتنوا فى طهى الاطعمة ومزجها بالألبان والخضر والتوابل، وقلدوا الفرس فى ارتداء الاقبية والسراويل والطيالسة والجوارب والخفاق، وتركوا الزى العربى للعامة، وراحو يبتدعون لمجالس أنسهم اثوابا خاصة يصبغونها بشتى الالوان الزاهية ويضمخونها بأزكى أنواع الطيوب فاسباب الحضارة المجلوبة الدخيلة على العقلية العربية، والمركزة فى الطبقة العالية، هى التى خلعت على الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى ذلك اللون الخاص الموسوم بطابع اللهو والمرح والاستهتار واكبر سبب فى تمكن نزعة اللهو فى عهد الرشيد، يرجع إلى عظم تأثير الفرس ولا سيما البرامكة الذين اشتهروا بالسخاء والميل إلى السرور والافراط فى

مجالس الانس والواقع أن هؤلاء بعد أن بسطوا نفوذهم على الدولة العباسية، نقلوا إليها حياة الاكاسرة وما اتصفت به مجالس انسهم من مجانة واغراق فى الترف على أن ادواء هذه الحضارة لم تتطرق إلى سواد الشعب، فظل معظمه فى ذلك العصر سليما، عربى الروح، فطرى المنزع، يحمل تلك الحضارة المترفة على منكبيه، ويسندها بفضائله العربية التقليدية الرائعة .

«ليس شك فى أن الثراء كان عظيما فى عهد الرشيد، وأن الثراء هو الذى مكن جماعات المترفين وبعض طبقات الشعب الاخرى من الفوز بأسباب التمتع .

ولقد نشأ هذا الثراء عن كثرة الدخل وقلة النفقات أى عن طبيعة النظام الاقتصادى فى ذلك العصر. وأما النظام نفسه فكان يجرى على النحو الآتى:

كانت أهم مصادر الجباية هى الزكاة والجزية والمكوس وأعشار السفن والجمارك والمستغلات وضرائب الصناعة وغيرها .

وكان الخراج وافرا فى العصر العباسى لعدة اسباب أهمها:

أولا : اتساع رقعة الدولة العباسية .

ثانيا : جهود الخلفاء فى سبيل اقرار الامن حفزت الناس على تعمير البلاد والاشتغال بالزراعة، حتى أن المنصور كان يتعقب ولاة الاقاليم الظالمين ويستولى على اموالهم ويضعها فى بيت مال خاص اطلق عليه اسم «بيت مال المظالم»

ثالثا : ثقل الخراج المفروض على المساحة المعينة من الأرض أو على حاصل الارض بعد زرعها واستغلالها

رابعاً : سداد رأى وزراء الدولة، وحسن تصريفهم الامور، ونزاهة عمال الجباية، وولاؤهم وأمانتهم فى ارسال المال المجموع .

فهذه العوامل مجتمعة ادت إلى وفرة الخراج أى إلى كثرة الدخل. ولكن قلة النفقات هى التى ادت ثراء الدولة ورخاء الافراد ومن أسباب ذلك ..

اقتصاد الخلفاء انفسهم وحرصهم على المصالح العامة. فالمنصور مثلا قد ادخر ٨١

مليون درهم، والمهدى كان شبيها بابيه من عدة وجوه. وأما الرشيد فكان جوادا سخيا ولكن فى توسط واعتدال واذن فكثرة الدخل وقلة النفقات هى الظاهرة الاقتصادية التى مكنت الناس فى أوائل العصر العباسى وفى عهد انشاء حضارة ازدهرت فيها العلوم والفنون والآداب ولولا اسراف الطبقة العالية فى حياة اللهو والترف، ولولا مبالغة الخلفاء فى احتضان الفرس ورفع شأنهم على حساب العرب، ولولا غلو بعض كبراء الفرس فى الجود والسخاء على حساب الدولة، ولولا ايثار المعتصم بالله جماعات الترك والفراعنة على العرب، ولولا كل هذه العوامل لتوطدت صروح الدولة العباسية وقويت شوكتها واطرد نماؤها وعاشت أكثر مما قدر لها أن تعيش وصفوة القول أن نفسية الطبقات الشعبية العاملة وما تخلف فيها من فضائل عربية سليمة هى التى انقذت الحياة الاجتماعية فى عهد الرشيد من التدهور والانحطاط على يد الطبقة المترفة العالية. كما أن النظام الاقتصادى بحرصه على دخل الدولة وتقليبه الاقتصاد على التبذير، ونشر اسباب الرخاء بين الأفراد ، وهكذا تدفقت الأموال على بغداد واينعت الحضارة ونشطت العلوم والفنون واعتز الشعر والادب فى عهد هارون الرشيد .

* * *

ويعد هذا هو هارون الرشيد بشخصيته التى تجمع بين المتناقضات : بين الجد واللهو ، والخير والشر، والرحمة والقسوة، والمثالية والبساطة، إنها شخصية الحاكم الانسان بكل تناقضات الانسان وبكل صوره التى تجمع كل المزايا والمثالب ، فى سجل الانسانية إنها شخصيته الحاكم العادل الذى ظلم أحيانا ، والكريم الذى قد يبخل ، والرحيم الذى قد يقسو، والجاد الذى يلهو ، والمستقيم الذى يحيد عن جادة الطريق، والطيب الذى يرتكب الشر أحيانا ، والصالح الذى قد يخطأ أحيانا، وشخصيته مركبة تجمع متناقضات الانسان فى كل زمان ومكان، ومن هنا كانت سر عظمة هذا الحاكم الإنسان : هارون الرشيد ! ..

فهـــرس